

البيلاغة القيمة لآيات

الفقران الكريم

« جزء عم »

د. عبد القادر حسين

البلاغة القيمة^١ لآيات القرآن الكريم [جزء عم]

دكتور عبد القادر حسين

أستاذ ورئيس قسم البلاغة

جامعة الأزهر

دار نشر الطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة

الكتاب : البلاغة القيمة لأيات القرآن

المؤلف : د / عبد القادر حسين

تاريخ النشر : ١٩٩٨

رقم الإيداع : ٩٨ / ٥٨٨٠

الترقيم الدولي : I.S.B.N 977-215-329-7

حقوق الطبع والنشر والاقتباس محفوظة للنشر ولا يسمح
بإعادة نشر هذا العمل كاملاً أو أى قسم من أقسامه ، بأى
شكل من أشكال النشر إلا بإذن كتابى من الناشر

الناشر : دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع
شركة ذات مسئولية محدودة

الإدارة والمطابع : ١٢ شارع نوبار لاهوتلى (القاهرة)

ت : ٢٥٤٢٠٧٩ فاكس : ٢٥٤٣٢٢٤

التوزيع : دار غريب ٣٠١ شارع كامل صدقى الفجالة - القاهرة

ت : ٥٩٠٢١٠٧ - ٥٩١٧٩٥٩

إدارة التعميم والتوزيع

والمعرض الدائم : ١٢٨ شارع مصطفى النحاس مدينة نصر - الدور الأول

مقدمة

هذا اتجاه جديد فى تفسير القرآن الكريم، أقصد به التفسير البلاغى والتركيز عليه، لبيان ما فى القرآن من أسلوب رفيع يتمثل فى اختيار ألفاظه وترتيبها على نسق معين، ومهمتى فى هذا التفسير أن أكشف عن سر الجمال فى الأسلوب القرآنى مما يؤدى إلى صقل الذوق والحس اللغوى والأدبى عند القارئ.

هذا النهج لم يسر عليه أحد من المفسرين لا فى العصور الحديثة ولا فى القرون الخالية، اللهم إلا إذا استثنينا العالم البلاغى الشهير الزمخشري ت ٥٢٨ هـ. ولم يكن الزمخشري يبين جمال القرآن أو السر البلاغى فى القرآن آية آية - كما فعلت فى هذا الكتاب - ومن ثم رأيت أن المكتبة البلاغية خالية تماما من هذا الاتجاه البلاغى فى التفسير.

وكذلك فعل الشيخ الطاهر بن عاشور فى كتابه «التحرير والتوير»؛ إذ لم يكن مصيبا فى كثير من الآراء البيانية أو تحليلاته البلاغية، أو المصطلحات التى تعارف عليها البلاغيون من قبل.

فلم يسلم تفسيره من الهنات التى لا يقرها المشتغلون بالبلاغة العربية - رغم جهده الكبير فى محاولة وضع الأمور فى نصابها - لذا تعين على باعتبارى اشتغل فى هذا الحقل البلاغى منذ أكثر من ربع قرن. بالدراسة الجامعية المتخصصة التى تعنى بالدراسة البلاغية التدقيقية، رأيت من حق الدراسين أن يكون بين أيديهم كتاب فى البلاغة لا يعنى بالمصطلحات قدر عنايته بإبراز سمات الجمال فى التعبير، التعبير الأخاذ الذى شمل القرآن الكريم فتباهى العرب بإعجازه وبلاغته.

سورة النبأ مكية

(عدد الآيات ٤٠ آية، نزلت بعد المعارج)

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (١) عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾

﴿عَمَّ﴾ أصلها عن ما، فادغمت النون في الميم، وحذفت الألف ليطمئز الخبر عن الاستفهام، ولتخفيف الكلام.

والاستفهام يؤذن بفخامة القصة التي يسألون عنها، والمعنى: عن أى شيء عظيم يسألون؟ والاستفهام ليس على حقيقته، بل جاء لمجرد التفتيح^(١).

والفائدة في ذكر السؤال والإجابة عنه؛ ما في ذلك من التفتيح والإيضاح.

وسبب نزول السورة، أن رسول الله ﷺ حين أخبر قومه بالبعث وتلا عليهم القرآن، جعلوا يتساءلون فيما بينهم، ما الذي جاء به محمد؟ فأنزل الله سبحانه: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ والضمير في يتساءلون، لأهل مكة.

وجاء لفظ (ما) التي يسأل بها عن الأشياء المجهولة، فسبحانه جعل الشيء الذي يعجز العقل عن إدراكه، والفهم عن استيعابه، كأنه مجهول.

﴿عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ﴾

﴿النَّبَأُ﴾ الخبر الذي له شأن. والمراد به القرآن. أورد سبحانه الكلام أولاً على سبيل الإبهام للفت انتباههم، ثم بيّنه بما يفيد توضيحه وتقظيمه، فهو نبأ عظيم.

ووصف القرآن بأنه عظيم؛ لأنه ينبئ عن التوحيد والبعث والنشور والحساب والجنة والنار وغير ذلك مما هو مذكور بين طياته.

(١) قال السيوطي: إن الآية جاءت للتعجب - التحبير في علم التفسير ص ٢١١.

يقول الزجاج: الكلام تام في قوله ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ وكان حق الإجابة: يتساءلون عن النبأ العظيم، ولكن بلاغة القرآن اقتضت الإيجاز.

﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٢)﴾

وأصل الكلام: الذى هم مختلفون فيه، فقدم الجار والمجرور لبيان أهمية النبأ الذى اشتد الخلاف حوله. فجعله بعضهم سحرا، وبعضهم شعراً، وبعضهم كهانة، واتفقوا على إنكار البعث.

﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ غير بالاسم الموصول، وجعل صلتة جملة إسمية للدلالة على الثبات، وأنهم راسخون في اختلافهم في القرآن ونبوة محمد ﷺ، فمن جازم باستحالته، ومن شاك في تعاليمه، ومن منكر للقيامة والبعث.

﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (١) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٢)﴾

حذف ما يتعلق بالفعل اختصاراً، أى سيعلمون ما يحل بهم، وكرر الآية تأكيداً للوعيد على سبيل التهويل. ومبالغة في التشديد^(١)، وثم تقيد أن الوعيد الثانى أبلغ من الوعيد الأول؛ حيث نزل التراخى والبعد في الرتبة منزلة التراخى في الزمان.

﴿كَلَّا﴾ أداة ردع وزجر عن كفرهم وإنكارهم، وكل ما جاء به القرآن من بعث وحساب صادق لا محالة، ولا موضع للشك فيه أو الإنكار.

يقول الواحدى قرئ سيعلمون الأولى على الغيبة، والتاء على المخاطب أى قل لهم ستعلمون، وهذا جائز على سبيل الالتفات من الغيبة إلى المخاطب والخطاب أشد تقريرا وهولا ومآخذة، من الكلام بصيغة الغائب.

ثم بدأهم على سبيل التقرير بما يباشرونه دائماً فقال:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٣)﴾

وصف الأرض بالمصدر، كأنه جعل الأرض نفس المهاد لكمالها فيه، فهي

(١) عد السيوطى التكرار من أنواع المجاز وذكر هذه الآية - المرجع السابق ص ٢٠٦.

كالمهد للصبى ينام عليه ويقرّ به، والمهاد: الفراش والبساط. أى تتقلبون فيه كما يتقلب الرجل على بساطه.

وأداة الاستفهام الداخلة على النفى ﴿أَلَمْ﴾ تعيد التقرير؛ لأنها تنفى النفى فيكون إثباتاً، أى أقررتم بأن الله جعل لكم الأرض مهاداً وفراشاً.

﴿وَالْجِبَالِ أَوْتَادًا ۝٧﴾

تشبيهه بليغ محذوف الأداة، أى جعلنا الجبال كالأوتاد لتسكن الأرض ولا تتحرك كما تثبت الخيام بالأوتاد، لا تميد بأهلها.

والوتد: ما يوتد ويحكم به الشيء المتحرك فيثبت ولا يتطاير.

﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ۝٨﴾

من ذكور وإناث، ويدخل فيه كل زوج من المخلوقات: من قبيح وحسن، وطويل وقصير، وشقى وسعيد إلى غير ذلك.

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩﴾

قال الزجاج: السبات: النوم، والمسبوت: الميت، أى جعلنا نومكم راحة لكم.

فشبه النوم لما فيه من راحة الجسد - دون أن تفارقه الروح - بالموت، لأنه أقوى في الظهور، فجعل النوم بمنزلة الموت في السكون وتلاشي الحركة.

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠﴾

أى نلبسكم ظلمته فتغطيكم كما يغطيكم اللباس، على طريق التشبيه والتمثيل، فإن شبه الليل باللباس أكمل، ويتحقق القصد أدخل.

﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١﴾

أى جعل النهار مضيئاً ليسعوا فيه ويقوموا بمعاشهم ورزقهم.

ونلاحظ المقابلة بين الآيتين: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ * ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ والمقابلة تعطى المعنى شمولاً وتعدداً بسبب ما فيها من أوصاف متضادة.

والآيات الثلاث: ﴿نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ و ﴿الَّيْلَ لِبَاسًا﴾ و ﴿النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ من السجع المتوازن.

يقول الزنجاني في كتابه «معيان النظر في علوم الأشعار» ج ٢ / ٨٥ : إن السجع المتوازن يراعى في الكلمتين الأخيرتين أو أكثر من القرينتين أو أكثر، الوزن مع اختلاف الحرف الأخير منها، وهو ما ينطبق على الجمل الثلاث.

وهي التنزيل ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ﴾ ولم يقل وجعلنا اليقظة، لتقابل ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ﴾، وإنما عبر عن اليقظة بالنهار، لكون النهار مستلزما لليقظة غالباً من جهة، ومن جهة أخرى لمراعاة مطابقة وجعلنا الليل.

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ (١٦)

سبع سموات قوية الخلق محكمة البناء، لا تتأثر بمرور الإعصار. وعبر بكلمة البناء - مع أنها تستعمل في أسافل البيت، وهنا تشير إلى أن البناء كان من فوق، كانت سقفاً - لأنها بعيدة عن الانحلال والتفكك مثل البناء. فاختيار هذه اللفظة حتى تكون دقيقة في إبراز المعنى المراد.

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ (١٧)

السراج: الشمس، والتعبير بكلمة السراج من روافد التعبير، عن الشمس كما عبر بالبناء عن خلق السموات، ﴿وَهَّاجًا﴾ مضيقاً جامعاً بين النور والحرارة. وهي من صيغ المبالغة لتقيد الكمال في النور والشدة في الحرارة.

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾ (١٨)

قال ابن عباس: ﴿الْمُعْصِرَاتِ﴾ هي السحاب، مأخوذ من العصر؛ لأن السحاب ينعصر فيخرج منه الماء. ﴿ثَجَّاجًا﴾ : منصيباً بكثرة، والتكثير لإفادة الكثرة. ﴿الْمُعْصِرَاتِ﴾ : اسم فاعل بمعنى أن الرياح شارفت أن تعصر السحاب فتعطر، ولم تعطر بعد. فهي اسم فاعل والمراد به اسم المفعول مجازاً.

﴿لُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥)﴾

الحب: الحنطة والشعير والذرة ونحو ذلك. والنبات مثل الحشائش والبرسيم ونحو ذلك. وبدأ بالحب لأنه الأهم حيث يتقوت به، ولكثرة نفعه، وشدة الحاجة إليه، فهو غذاء للناس في الغالب. والنبات يتخذ علفاً للحيوان كالتبن والبرسيم. ﴿لُخْرِجَ بِهِ﴾ أى بذلك الماء.

﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (١٦)﴾

الجنان تطلق على النخيل والشجر الكثيف الملتف أغصانه وينتشر ظله على الأرض. فكل ما في الأرض من نعيم يتحصر في هذه الأمور الثلاثة: الحب والنبات والشجر. وآخر ذكر الجنات عن الحب والنبات؛ لأن الحاجة إلى الفواكه ليست ضرورية مثل الحاجة إلى الحب والنبات.

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا (١٧)﴾

يوم الفصل: يوم القيامة. وسمى بذلك لأنه يفصل بين الحق والباطل، ولذا كان وقته في علم الله وتقديره دون غيره من المخلوقات، وبه تنتهى الدنيا و«ال» في الفصل للعهد، أى العهد بالله هو الذى يفصل بين الناس. و ﴿كَانَ﴾ لا تفيد الماضى؛ لأن يوم الفصل غير مقيد بالزمن الماضى، فهو أمر مقرر لا جدال فيه، قبل حدوث الزمان أيضا، ولذا أكد الكلام بأن.

﴿يَوْمَ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (١٨)﴾

﴿الصُّور﴾: القرن الذى ينفخ فيه إسرافيل. وهى النفخة الثانية، نفخة البعث من القبور إلى الموقف، فتأتون جماعات وجماعات وأمما أمما، فأفاد التكثير فى ﴿أَفْوَاجًا﴾. ﴿يَوْمَ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ بيان لقوله فى الآية السابقة ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ لزيادة تفخيمه وتهويله. ومتعلق تأتون، محذوف اختصاراً، أى تأتون إلى موضع العرض والحساب. والمراد بالنفخ فى الصور، نفخ الأرواح فى الأجساد، فتحيا بعد موت.

﴿ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴾ (١٩)

فتح فعل ماضٍ معطوف على ينفخ الفعل المضارع، وعبر بالماضى ليدل على تحقق وقوع الفعل، أى تفتح السماء، على وجه اليقين لتتزل الملائكة. فكانت أبواباً، أى قطعت قطعاً كالأبواب، أو صارت كلها أبواباً مفتحة. هالتكثير فى ﴿ أَبْوَابًا ﴾ أفاد الكثرة الهائلة الشاملة.

﴿ وَسِيرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ (٢٠)

أى طارت الجبال دون أن تستقر فى أماكنها، طارت فى الهواء، وصارت هباءً، تلاشت وأصبحت لاشئ، فكانت مثل السراب الذى تظنه ماء وليس بماء. أى صارت الجبال كلاشئ، كما أن السراب يظن الناظر أنه ماء وليس بماء. فهو تشبيه فى غاية الدقة والروعة والجمال.

﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴾ (٢١)

كانت جهنم كالمنتظرة لقدمهم من قديم الزمان، طالبة لهم. والمرصاد: المكان الذى يرصد فيه، أى أن خزنة جهنم يرصدون الكفار ويتربونهم.

والمرصاد: من صيغ المبالغة «مفعال» فترصد أعداء الله وتشق عليهم، وتستبدعهم، وتكاد تتميز عليهم من الغيظ، أى تتاديهم جهنم هلموا إلى فانا فى شوق لتعذيبكم.

﴿ لِلطَّاغِينَ مَأْبَأٌ ﴾ (٢٢)

الطاغي: من طغى بكفره، والمأب: المرجع. أى أن جهنم مرصاد للكل، ومأب للطاغيين خاصة، وهم طاغون لاعتقاداتهم الباطلة. ودياناتهم الزائفة.

﴿ لَا يَتَيْنِ فِيهَا أَحْقَابًا ﴾ (٢٣)

الأحقاب: جمع حُقب وهو ثمانون عاماً، أى ماكثين فى النار لا يبرحون

مكانها طيلة الأحقاب، وكلما انقضى حقب جاء حقب آخر، أى لا يثن فيها على الدوام لا ينصرفون عنها، وذلك كناية عن التأييد، أى يمكنون فيها أبداً ولهم عذاب مقيم.

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (٢٤) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَاقًا (٢٥)﴾

تفسير لقوله ﴿لَا يَتَنَبَّهْنَ فِيهَا أَهْقَابًا﴾ ولذا لم تعطف على الجملة قبلها، فبين الجمليتين كمال اتصال والاستثناء منقطع، يعنى لا يذوقون فيها بردا يخفف عنهم حر جهنم، ولا شرابا يسكن من عطشهم، ولكن يذوقون الحميم والفساق. والذوق يصلح للقليل والكثير، وتكرير برداً وشراباً ليشمل كلا النوعين. والزجاج يجعل البرد شاملاً لكل شيء له راحة، فقوله ﴿وَلَا شَرَابًا﴾ تخصيص بعد تعميم لكماله فى الترويح. الحميم: الماء الحار المغلى، والفساق: صديد أهل النار.

هذه الآية تبين كيفية عذاب أهل النار فى أبشع صورة وأهولها، فهم لا يستريحون أبداً، لا روحاً ولا جسداً، ثم لا يذوقون إلا الحميم والصديد. فما أبشع هذا العذاب وأفظعه. وكلمة غساق فارسية معربة.

﴿جَزَاءً وَفَاءً (٢٦)﴾

أى جازيناهم جزاء يوافق أعمالهم، فكانت أعمالهم سيئة، فأثامهم الله بما يسوءهم، ولم يزد على قدر الاستحقاق.

وصف الجزاء بالمصدر ﴿وَفَاءً﴾ أى لا يخرج الجزاء عن أعمالهم فكانت لها وفقا. كأنه نفس الوفاق مبالغة؛ لأنهم أتوا بمعصية عظيمة وهى الكفر.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (٢٧)﴾

أى لا يخافون أن يحاسبوا بأعمالهم، وعبر بالرجاء بدلا من الخوف، لشدة استهتارهم واستيغادهم للحساب، فكلمة الرجاء أخف وطأة من الخوف، فعبر القرآن بما يناسب أحوالهم.

﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا (٢٨)﴾

يقول الفراء كَذَابٌ عَلَى وَزْنِ فِعَالٍ، وهى لغة فصيحة يمانية، أى كذبوا بآيات القرآن تكذيباً شديداً، وأنكروها إنكاراً لا مزيد عليه.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ (٢٢)

قدم المفعول ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ﴾ وأعاد عليه ضميره فى أحصيناه، وذلك للاحتراز ببيان المعنى المقصود، ووضع فى صورة ملائمة تتبى عن الاهتمام بالمعنى، وعدم الانحراف عنه، أى لا يفوت الله سبحانه شيء لا يحصيه، فكل شيء يحصيه دون أن يتخلف عنه شيء على الإطلاق فكانه تعالى قال: وكل شيء أحصيناه إحصاء مساوياً فى القوة والثبات، و ﴿كِتَابًا﴾ جاءت لتأكيد ذلك الإحصاء.

﴿فَذَرُوا فَلَن نُّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ (٢٣)

خاطبهم بذلك على طريق الالتفات من الغيبة إلى الخطاب زيادة فى التهديد والمهانة؛ لأن الخطاب أقذع فى الحساب وأشد نكالا، وينبئ عن التشديد فى التهديد. وفيه أسلوب قصر طريقه النفى والاستثناء، أى لا يزيدكم من صور الحساب إلا العذاب، فلا تنتظروا نعيماً أو راحة.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ (٢٤)

بعد أن فرغ من حال أهل النار، شرع فى حال أهل الجنة. ولم يعطف بالواو بين حال أهل الجنة وأهل النار لما بينهما من تضاد.
المفاز: مصدر بمعنى الفوز بالنعمة والنجاة من النار، وقيل للفلاة: مفازة، تفاؤلاً بالخلاص منها.

وقدم فوز المتقين وخلصهم من الهلاك على حصول المتعة واللذة التى جاءت فى قوله: ﴿حَدَاتِقٌ وَأَعْتَابًا * وَكَوَاعِبٌ أَثَرَابًا﴾ لأن الخلاص من الهلاك لا يستلزم حصول اللذة والفوز بها، فتدرج التعبير من العظيم إلى الأعظم.

﴿حَدَاتِقٌ وَأَعْتَابًا﴾ (٢٥)

جعل الفوز هو الحدائق والأعتاب على طريق المبالغة، ونكر ﴿أَعْتَابًا﴾ دلالة على فيضها وكثرتها وتعميم حال تلك الأعتاب.

وذكر الأعناب مع أنها داخلة في الحقائق، فخصص بعد التعميم لبيان فضلها، والحقائق: جمع حديقة، وهى الروضة ذات الأشجار التى يحيط بها جدار.

﴿ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴾ (٣٣)

الكواعب: جمع كاعب، وهى التى تكعب ثديها، أى صار مثل الكعب.
والأتراب: الأقران فى السن.

والآيتان: ﴿ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴾ و﴿ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴾ من السجع لاستوائهما فى الوزن واتفاقهما فى المعجز، مما يزيد الكلام حسنا وبهاء^(١).

﴿ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴾ (٣٤)

و ﴿ دِهَاقًا ﴾ معناها عند جمهور أهل اللغة الكأس المترعة الصافية، والمراد بالكأس الخمر، قال الضحاك: كل كأس فى القرآن فهو خمر.

﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدًّا ﴾ (٣٥)

اللفو: الباطل من الكلام، ﴿ وَلَا كِدًّا ﴾ : لا يكذب بعضهم بعضا، كناية عن معيشة أهل الجنة فى صفاء ومودة.

﴿ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا ﴾ (٣٦)

جزاء مصدر مؤكد، أى جازى المتقين جزاء وفاقا.

والعطاء والجزاء وإن كان ظاهريهما واحداً إلا أن مفزاهما مختلف، فالعطاء فيه معنى التفضل والزيادة، لا عن استحقاق وجدارة بل هو خاص بالمؤمنين. والجزاء فيه معنى العدل دون زيادة، فهو خاص بمعاملة الكافرين. فذكر القرآن فى وعيد أهل النار ﴿ جَزَاءً وَفَاقًا ﴾. وذكر فى وعد أهل الجنة ﴿ عَطَاءٌ حِسَابًا ﴾. ولما بالغ فى وصف وعيد أهل النار ووعد أهل الجنة ختم الكلام بقوله:

﴿ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾ (٣٧)

(١) معيار النظار - الزيجاني - ج ٢ / ٨٢ ، تحقيق محمد على الخفاجي.

أى هو ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وحذف المبتدأ لتعينه وعدم انصراف الذهن إلى غيره. وخبره ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾.

والمعنى: لا يملكون أن يسألوا إلا فيهما أذن لهم فيهم. وتكثير ﴿خَطَابًا﴾ للتقليل، أى لا يملكون معه خطابا ولو كان قليلا؛ جملة أو كلمة.

والطابق بين السموات والأرض، يفيد أن الله خالق الكون كله ومالكه، ويؤكد قوله ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾. ﴿الرَّحْمَنُ﴾ معناها مفيض النعم والخير على المخلوقات كلها.

والآية كناية عن نقى قدرتهم أن يخاطبوه بشيء من نقص العذاب أو زيادة الثواب.

﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ (٣٨)

الروح: ملك عظيم، أو جبريل على المشهور (١).

وعطف ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾ على ﴿الرُّوحُ﴾ من عطف العام على الخاص، وقدم ﴿الرُّوحُ﴾ لتمييزه عن بقية الملائكة. ﴿صَفًّا﴾ حالة كونهم بهذه الهيئة مصطفين. ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ﴾ فى موقف القيامة إجلالا لربهم وخشية منه وخضوعاً له، وإذا كان هذا هو موقف الملائكة، فما بالك بغيرهم.

ولا شك أن فى ذلك تهويلا بيوم البعث والحساب.

﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ للإيدان بأن مناط الإذن هو الرحمة البالغة.

﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَا بَا﴾ (٣٩)

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى يوم القيامة، وهى تقيد بعد منزلته وتعظيمه. وهو حق لأنه يدمغ كل باطل، وعرف اليوم الحق «بأل» للدلالة على كماله فى هذا المعنى. وفيه تخصيص له بالحق، وما عداه فهو باطل.

﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَا بَا﴾ وعيد وتهديد وإنذار بالعذاب للكافرين والعصاة.

(١) يقول السيوطى: ملك، لم يخلق الله بعد العرش أعظم منه رواء ابن جرير. وقيل: جبريل. التعبير فى علم التفسير ص ٤٠٦.

والمآب: العودة والرجوع. ومفعول المشيئة محذوف يدل عليه جواب الشرط، أى فمن شاء أن يتخذ إلى ربه مآباً اتخذ إلى ربه مآباً.
وزاد سبحانه فى تخويف الكفار فقال:

﴿ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾

وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا (٤٤) ﴿

﴿ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا ﴾ نكر العذاب لبيان شدته وقسوته. والخطاب للمشركين؛ لأنهم ينكرون البعث. ووصفه بأنه قريب ﴿ عَذَابًا قَرِيبًا ﴾ لتحقيق وقوعه. فكل أت قريب. وعبر بكلمة ﴿ أَنْذَرْنَاكُمْ ﴾ لما لها من فاعلية فى التخويف، فالإنذار ينبئ بنهاية التخويف وبعد مداه.

﴿ يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ فما فعله المرء من خير أو شر فى دنياه يراه بنفسه رأى العين كأنه شئ محسوس حتى لا يستطيع أن ينكره. و ﴿ مَا ﴾ استفهامية، أى ينظر أى شئ قدمت يده؟

و ﴿ الْمَرْء ﴾ المراد به المؤمن والكافر على حد سواء؛ لأن كل أحد يرى عمله فى اليوم مثبتاً فى صحيفته، والتعبير ببداة مجاز عن النفس، أى ما قدمته نفسه فى حياته.

﴿ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴾ «أل» فى الكافر تفيد جنس الكافر الذى يتمنى أن كان تراباً فى الدنيا ولم يخلق فيها، أو تراباً فى الآخرة حتى لا يشملته العذاب. يقول ذلك وهو حسير على موقفه المهين. وعبر باداة التمنى؛ لأنه يعلم أن أمنيته ضالة ولن تتحقق أبداً.

والآيات من قوله تعالى ﴿ جَزَاءُ مَنْ رَبَّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا ﴾ إلى آخر السورة ﴿ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴾ كلها تنتهى بالباء. وسجماً واحداً، ويسمى هذا النوع عند علماء البديع بالسجع المتوسط، وهو ما كانت السجعة الثانية مثل الأولى أو أطول، ولكنه طول غير فاحش.

والسجع هنا حسن؛ لأن الألفاظ حلوة المذاق يلذ سماعها في الأذان، كما أن الألفاظ تابعة لمعناها، وليست المعاني تبعاً لها، فيصيبها التكلف، وكل سجعة مخالفة في معناها للسجعة التي قبلها، فاشتملت السجعات على غاية الحسن والرواق،^(١).

* * *

(١) فن البديع - د. عبد القادر حسين - ص ١٢٧ طبعة دار الشروق.

سورة النازعات مكية

(عدد الآيات ٤٦ آية، نزلت بعد النبأ)

﴿وَالْنازعاتُ غرقًا﴾ (١)

الواو للقسم، والقسم يدل على عظم شأن المقسم به، و ﴿غرقًا﴾ مصدر والفرق والإغراق في اللغة بمعنى واحد.

ومعنى ذلك: أن ملك الموت وأعوانه ينزعون الروح إذا حلّ أجل المرء، ويجذبونها من مقرها في عنف، كما يجذب الرامي القوس بشدة فيبلغ به الحد الأقصى، فتبدو الروح وكأنها تنفذ من ثقب إبرة لشدة ما تعانیه من الجذب، وتسليخ منه كما يسليخ جلد الحيوان وهو حي.

فهذا شأن ملائكة الموت مع الكفار والعصاة، ومع المؤمنين فالأمر يختلف، وعبر عنه القرآن بقوله:

﴿وَالْناشطاتُ نشطًا﴾ (٢)

تقول أنشط البعير، حل وثاقه، وكأنما أنشط من عقال، وجذب من مقره في لين ورفق، فملائكة الرحمة تجذب أرواح المؤمنين من أطراف البنان ورعوس الأصابع، لا يحس ألما ولا يعانى شدة.

﴿وَالسَّابِقاتُ سبًا﴾ (٣)

أي أن الملائكة تسلي أرواح المؤمنين في هودة ورفق ولطافة، كالذى يسبح في الماء، فإنه يتحرك في رفق ولين، أقسم سبحانه بطوائف الملائكة التي تنزل من السماء إلى الأرض مسرعة، يشبهون في سرعة نزولهم بمن يسبح في الماء.

﴿فالسَّابِقاتُ سبًا﴾ (٤)

عطف السابقات بالفاء دلالة على ترتيب السبق على السبق دون مهلة. وهو من عطف المسبب على السبب، أى اللاتى يسبقن هيسبقن. واسم الفاعل «السابقات» يدل على أن السبق من شأنهم لا يحيدون عنه، و ﴿سَبَقًا﴾ كناية عن الإسراع فيما أمروا به: لأن السبق من لوازم الإسراع.

﴿فَالْمُدْبِرَاتِ أَمْرًا ۝٥﴾

قال القشيري: أجمعوا على أن المراد هنا الملائكة.

وعطف بالفاء، لتطابق الآية السابقة، ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبَقًا﴾، وإسناد التدبير إلى الملائكة مجاز؛ لأن المدبر هو الحقيقة هو الله سبحانه، والملائكة تنفذ تدبير الله.

وأصناف الملائكة التى تقوم بتدبير الأمور أربعة:

جبريل: وهو موكل بالرياح والجنود.

وميكائيل: موكل بالقطر والنبات.

وعزرائيل: موكل بقبض الأرواح.

وإسرافيل: موكل بأن ينزل الأمر عليهم.

وجواب القسم محذوف، أى: والنازعات والناشطات، والسابقات،

فالسابقات، فالمدبرات لتبعثن. وحذف جواب القسم بقدر بما يدل عليه سياق الكلام، وهو كثير فى القرآن الكريم^(١).

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝٦﴾

عند النفخة الأولى التى يموت فيها كل حي. تضطرب الأرض وما عليها من

جبال ووهاد وأنهار، فتزحف وتضطرب ويكون لها دوى كالرعد.

فالراجفة: صيحة عظيمة فيها هول وشدة كالرعد. وأسند الفعل ترجف إلى

النفخة الأولى مجازاً عقلياً؛ لأنه أسند الفعل إلى السبب وليس إلى الفاعل الحقيقى.

(١) الإكسير فى علم التفسير، الطوفى البقداوى ص ٢٢٢. تحقيق د. عبد القادر حسين.

﴿ تَبِعَهَا الرَّادِفَةُ ﴾ (٧)

أى النسخة الثانية التى ينهض فيها الأموات من قبورهم للحساب تأتى تالية وتابعة للنسخة الأولى، وسميت رادفة؛ لأنها تردف وتتبع الأولى.

﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ (٨) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴾ (٩)

نكر ﴿ قُلُوبٌ ﴾ للتكثير، أى قلوب كثيرة عاصية، هى قلوب الكفار، وإنما جاز الابتداء بالنكرة لأنها خصصت بقوله ﴿ وَاجِفَةٌ ﴾ .

﴿ وَاجِفَةٌ ﴾ مضطربة خاشعة، دائمة فى اضطرابها وخشوعها وذلتها كما ينبىء التعبير باسم الفاعل. ﴿ أَبْصَارُهَا ﴾ أضاف الأبصار إلى القلوب، مجازاً، والمراد أصحابها، فعبر بالجزء وأراد الكل. وأسند ﴿ خَاشِعَةٌ ﴾ للقلوب، مجازاً؛ لأن القلوب محل الخشوع والخوف. والوجيف: اضطراب القلب، و ﴿ خَاشِعَةٌ ﴾ : ذليلة منكسة.

﴿ يَقُولُونَ أَنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴾ (١٠)

هذا القول فيه دلالة على إنكارهم للبعث واستهزائهم بأنهم سيعودون أحياء فى قبورهم. وهكذا قال الخليل والفراء.

وتقول: رجع فلان فى حاضرتة، أى فى طريقه التى جاء فيها. و ﴿ الْحَافِرَةِ ﴾ هى الأرض التى تحفر فيه القبور. وحاضرة بمعنى محفورة فهى مجاز عقله علاقته المفعولية؛ لأن الحفر يكون من أصحاب الدنيا وليس من الحياة الدنيا نفسها، كما تقول عيشة راضية، والعيشة لا ترضى وإنما يرضى أصحابها، فهى مرضى عنها.

﴿ أَمَّا إِذَا كُنَّا عِظَامًا نُخْرَعُ ﴾ (١١)

نكر ﴿ عِظَامًا ﴾ لتحقيرها وازدراء شأنها، و ﴿ نُخْرَعُ ﴾ بالية هاسدة. أرادوا أن يؤكدوا على أنهم لن يبعثوا، فكيف يكون البعث بعد أن يصيروا عظاماً بالية مفتتة؟ ففى الآية تأكيد وإنكار. و ﴿ نُخْرَعُ ﴾ أبلغ من ناخرة؛ لأنها من صيغ المبالغة.

﴿ قَالُوا تِلْكَ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ (١٢)

عبر فى هذه الآية بالفعل الماضى ﴿ قَالُوا تِلْكَ ﴾ ولم يعبر بالمضارع كما سبق

﴿ يَقُولُونَ إِنَّا لَنَرُدُّوهُنَّ فِي الْخَافِرَةِ ﴾ . فتحين عبر بالمضارع أراد أنهم مستمرّون في كفرهم . وحين عبر هنا بالماضي أراد أن صدور هذا الكفر عنهم لم يكن على سبيل الاستمرار مثل الأول . و ﴿ تِلْكَ ﴾ إشارة إلى البعيد لتفيد بُعد وقوع البعث في اعتقادهم ﴿ كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ أى رجوع ذو خسران ، وهو مجاز عقلى ، فالكرة لا تخسر وإنما يخسر أصحابها .

«والمجاز العقلى من محاسنه الإيجاز ، والإيجاز من آثار البلاغة ويضفى على الكلام سحراً وطلاقة»^(١) .

﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۖ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ۝١٣ ﴾

إنما تفيد القصر والتخصيص ، أى زجرة واحدة ، وليست أكثر من ذلك . وليست صعبة ولا مستعصية على قدرة الله سبحانه^(٢) . والزجرة : هى صيحة إسرافيل ، وهذه الصيحة هى النفخة الثانية ، التى بموجيها إحياء الموتى فى قبورهم . وإذا تفيد المفاجأة ، فيحدث ما أنكره بسرعة فائقة . والساهرة : الأرض البيضاء المستوية ، وسميت ساهرة لأن سالكها لا ينام خوفاً منها ، ويطير النوم من أجفانه .

والأرض لا تسهر ، وإنما يسهر الناس فيها ، فهى مجاز علاقته المكانية .

ثم استأنف الحديث تسلياً لرسوله الكريم فقال :

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ۖ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٤ ﴾

شق على الرسول إنكار الكفار للبعث ، فسرى عنه بذكر قصة موسى مع فرعون ، وما تحمله موسى من مشقة عظيمة حين دعاه إلى التوحيد ، فكان فى ذكر هذه القصة تسرية لرسوله ﷺ وتخفيفاً عنه ، وترغيباً له فى استماع حديثه ، فالرسول لم يكن يعلم بحديث موسى مع فرعون وأنه لم يأت بعد ، فلو كان يعلم لما حزن على إنكار قومه لرسالاته واستهزائهم بالبعث .

(١) فن البلاغة - المؤلف - ص ٩٧ .

(٢) «إنما ، تَجَنُّ لخبير لا يدفع المخاطب صحتة ، أو ما ينزل هذه المنزلة ، فالكافرون وإن كانوا ينكرون البعث ، إلا أنهم نزلوا منزلة غير المنكر لسهولته على الله سبحانه وكثرة الأدلة على قيامه ولا محل لإنكاره ، نهاية الإيجاز - الفخر الرازى - ص ٣٦١ .

والاستفهام للتقرير، والمراد به نفى إثبات الحديث لمحمد، لأن الاستفهام إذا دخل على المذهب نفاه.

والمعنى لم يأتك حديث موسى حين ناداه ربه بالوادي المقدس، ووصف الوادي بالمقدس؛ لأنه يقع في حدود الأرض المقدسة المطهرة عن الشرك. والوادي: الأرض المنبسطة بين جبلين.

يقول الفراء: طوى: واد بين المدينة ومصر، وهو واد بالقرب من جبل الطور.

﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ (٧٧)

تفسير وبيان للنداء الذي ذكر في الآية السابقة ﴿ اذْ نَادَاهُ رَبُّهُ ﴾ أى قال: اذهب إلى فرعون؛ لأن النداء فيه معنى القول.

ولذا لم تعطف هذه الآية على التي قبلها، كما لا يعطف التفسير على المفسر لما بينهما من كمال الاتصال.

يقول العلوى صاحب الطراز: باب الفصل والوصل دقيق المجرى، لطيف المغزى، جليل المقدار، كثير القوائد، غزير الأسرار. الطراز ٢ / ٣٢.

يقول الإمام عبد القاهر:

«إذا جاءت الجملة الثانية ممتزجة بالجملة الأولى شديدة الاتصال بالتي قبلها: كأنهما أفرغا في قالب واحد بأن تقع صفة أو بيان، فلا يصح عندئذ العطف، وذلك لتتزيلها مع ما قبلها منزلة الشيء الواحد، والشيء لا يجوز عطفه على نفسه، وهذا ما يسمى بكمال الاتصال»^(١).

﴿ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ أكد طغيانه بأن، والطفيان مجاوزة الحد في الأقوال والأفعال، فعزل أمره لموسى بالذهاب إلى فرعون حيث إنه طغى في إنكاره للواحد القهار والألوهية لنفسه.

﴿ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَٰهٌ إِلَّا أَنَا تَرْكَبُ ﴾ (٧٨)

(١) الدلائل - عبد القاهر ص ١٧٠.

الفاء تسمى فاء الفصيحة؛ لأنها أفضحت عن محذوف، أى: فإذا ذهبت إليه فقل هل لك سبيل إلى التزكى، ورغبة في التطهر. فالاستفهام جاء هنا لتقرير الكلام، وعرضه في صورة التلطف في القول. ﴿تَزَكَّى﴾ أصلها تتزكى، ولكن القرآن أثر التعبير بتزكى تخفيفاً على اللسان. وسهولة في النطق.

﴿وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى (٢٤)﴾

أى أرشدك إلى معرفته، فإذا عرفته خشيته. فالخشية مترتبة على المعرفة. ولذا جاء بالفاء. وعبر بالمضارع مع أن الفعل وقع في الماضي لاستحضار الصورة وتمثلها، كأن الهداية والخشية ماثلة أمامه مستمرة لا تنمحى.

فالتعبير بالفعل المضارع هو التعبير الدقيق الذي ينقل الصورة بكل أبعادها ومعانيها، صورة الهداية والخشية التي لا تزول ولا تنقطع.

وابن جنى تناول موضوع التعبير بالمضارع بدلاً من الماضي، وذكر لذلك علة بلاغية ترجع إلى استحضار الصورة في الذهن^(١).

﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (٢٥)﴾

الفاء فاء الفصيحة؛ لأنها أفضحت عن جمل طويت، أى ذهب إليه موسى ودعاه إلى التوحيد والطاعة، فطلب منه فرعون المعجزة التي تدل على صدقه فأراه الآية الكبرى. وهذا الحذف جاء اختصاراً للكلام ويعدا عن التطويل خاصة أنه لا يخفى على القارئ اللبيب. والمراد بالآية الكبرى: قلب العصا حية وابتلاعها كل ما أتى به سحرة فرعون.

﴿فَكَذَّبَ وَعَصَى (٢٦) ثُمَّ أَذْبَرَ يَمِينَهُ (٢٧)﴾

أى كذب موسى، وعصى ربه، وتمرد عليه بعد ما رأى معجزة موسى، وفي ذلك ذم لفرعون وتقبيح لحاله. وثم تقيد التراخي في الزمن؛ لأن بين التكذيب والإدبار فترة زمنية يقتضيها الموقف والانصراف عن المجلس الذي يجمع فيه قومه.

(١) أثر النحاة في البحث البلاغي - المؤلف - ص ٢٩٤، والخصائص لابن جنى ١٠٥ / ٢.

وانظر إلى الفاظ الجملتين واستوائهما في الوزن، مع اختلافهما في الحرف الأخير، بين (عصى، ويسعى) وهو ما يسمى بالسجع المتوازن عند علماء البديع^(١). وأدبر: أعرض عن الإيمان، أو أدبر هارباً من الحياة، ويسعى في معارضة المعجزة عناداً وتكبيراً.

﴿ فَحَثَرَ قَدَائِي (٢٢) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (٢٣) ﴾

أي جمع السحرة ونادى في الناس، فحذف المفعول: (السحرة)، والمتعلق بالفعل (في الناس) لضيق المقام عند ذكره، فالوقت لا يتسع لإطالة الحديث، وهو في شدة اللهفة لاقتصاصه من موسى، وإبقاء قومه في طاعته، وعدم خروجهم عليه. وفسر النداء بالقول: لأن النداء قول هماً إذا قال: ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ جواب عن سؤال مقدر، ويسمى ذلك عند البلاغيين شبه كمال اتصال. ولا يخفى على عاقل أن ذلك جاء على معنى الجواب، وأن فرعون جمع قومه ونادى فيهم ليحببهم عن تساؤلهم الذي بدا على وجوههم فأراد أن يزيل شكوكهم في ربوبيته قبل أن ينطقوا بذلك بالسنتهم.

وهذه الآية تقيد التخصيص: أي أنه هو الرب الأعلى دون سواء، فليس ثمة رب غيره، لا إله موسى وإله هارون بل هو الإله الأوحد.

﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى (٢٤) ﴾

الأخذ فيه شدة وعنف، ولذا عبر بالمصدر ﴿ نكال ﴾ لتوكيد الأخذ، أي أن الله نكل به نكال الآخرة والأولى، فأخذه ونكله متقاربان، والنكال هو التنكيل بمعنى التعذيب. وأضاف النكال للآخرة والأولى مجازاً لوقوعه فيهما.

والمعنى: عذبه في الآخرة وأغرقه في الدنيا.

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى (٢٥) ﴾

أي ما ذكر من قصة موسى وفرعون عظة وعبرة لمن يخشى الله ويحاذر

(١) معيار النظار - الزنجاني - ص ٨٥.

غضبه. واستعمل أدوات التوكيد ﴿إِنَّ﴾ ودخول اللام على اسم إن ﴿لَعِبْرَةٌ﴾ ونكرها للتعظيم، أى عبرة عظيمة تنفع كل ما يتقى الله ويخشاه. وقدم الجار والمجرور ﴿فِي ذَلِكَ﴾ التى تعود على قصة موسى وفرعون، لبيان أهميتها ورفعة شأنها.

وبعد أن ختم هذه القصة عاد إلى منكرى البعث وخاطبهم بقوله:

﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ (٧٧)

الخطاب لكفار مكة، وقصد بالاستفهام التوبيخ والتبكيت، والمعنى، هل البعث أشد فى تقديركم من خلق هذا الجرم العظيم، أراد منهم الإقرار بأن خلق السماء أصعب وأشق، فكيف تتكرون الأهون والأسهل وهو البعث. ﴿بَنَاهَا﴾ أى التى بناها، ففى الكلام حذف والحذف جائز فى اللغة؛ لسهولة الكلام وخفته.

﴿رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا﴾ (٧٨)

امتداد الشيء من أسفل إلى أعلى يسمى سمكا، وإذا أخذ من أعلى إلى أسفل يسمى عمقا. وصف السماء بأنها مرتفعة فوق الأرض، عالية فى الهواء. ﴿فَسَوَّاهَا﴾ مستوية ليس فيها ارتفاع أو انخفاض، محكمة الصنع ثم وصف السماء بوصف آخر:

﴿وَأَعْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ (٧٩)

أى أظلم ليلها، وأبرز ضوء نهارها.

عبر عن النهار بالضحى، لأن الضحى أكمل أجزاء النهار، ولأنه يلزم من ذكر الضحى ذكر لازمه وهو شدة الضوء التى توجد فى النهار، فهذا تعبير كثائى، حيث عبر باللازم وأراد الملزم، وهو تعبير غير مباشر يلقى على الكلام شفافية وظلالا.

والمقابلة بين ظلمة الليل وضوء النهار واضحة لا تحتاج إلى بيان. وآخر ذكر الضحى عن ذكر الظلمة؛ لتمام النعمة كما يأتى الفرج بعد الشدة.

﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ (٨٠)

بعد أن انتهى من خلق السماء ووصفها شرع فى ذكر الأرض وأوصافها، خلق

الله الأرض قبل السماء من غير أن يدحوها، وبعد تسوية السموات السبع دحا الأرض، فدحو الأرض بعد خلق السموات. ﴿دَحَاهَا﴾ بسطها وجعلها مهيئة لإنبيات الأوقات.

﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ (٢١)

الماء ماء البحار والأنهار والعيون، والمرعى: كل ما تثبتته الأرض، ويأكله الناس والأنعام، من عشب وحبّ. فالآية تشمل العديد من أمواها ومراعيها. وهو ما يسمى إيجاز القصص. «وهو الذى لا حذف فيه، أى لا يكون إيجازه بسبب الحذف، وتعبر عن المقصود بلفظ ناقص ولكنه وافٍ بأصل المراد»^(١)، فهذه الآية من جوامع الكلم.

وجاءت الآية دون عطف بالواو؛ لأنها جاءت مفسرة وبيانا لقوله ﴿دَحَاهَا﴾ فى الآية السابقة. قدم الماء على المرعى؛ لأنه سبب فى وجود المرعى. والمرعى يتقوت به الحيوان حقيقة، والإنسان مجازا.

﴿وَالْجِبَالِ أَرْسَاهَا﴾ (٢٢)

أى ثبتها فى الأرض وجعلها كالأوتاد حتى لا تميد بأهلها. وقدم ذكر إخراج الماء والمرعى وأخر إرسال الجبال، للاهتمام بأمر المأكول والمشرب، فكان حقه أن يقدم.

﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ (٢٣)

أى كل ما خلقناه من سماء وأرض وليل ونهار وماء ومرعى وجبال، خلقناه لأجل تمتعتكم ولفائدة أنعامكم.

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى﴾ (٢٤)

الطامة عند العرب: الداهية التى لا تحتمل، وفيها معنى الغلبة والقهر، وهى النفخة الثانية، نفخة البعث من القبور، وسميت بذلك لأنها تطم على كل شيء

(١) خلاصة المعاني - الحسن المفتى (ت ١٠٥٩ هـ) - تحقيق المؤلف - الناشر: العرب ص ٢٨٣.

لعظم هولها . ووصفها بالكبرى مما يدل على أن النسخة الأولى هي الطامة الصغرى والنسخة الثانية هي الطامة الكبرى، لشدة أهوالها وفظاعتها، يترقب عليها البعث والنشور والحساب والجنة والنار ونحو ذلك.

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾ (٣٥)

أى: إذا رأى أعماله مدونة مكتوبة تذكرها بعد أن كان قد نسيها . يتذكر ما عمله من خير أو شر. ﴿مَا سَعَى﴾ ما مصدرية بمعنى «سعيه» أو موصولة أى الذى سعى فيه وبه . وسواء أكانت مصدرية أم موصولة فهي تفيد العموم، أى تذكر كل ما سعى فيه من خير أو شر.

﴿وَبَرَزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى﴾ (٣٦)

برزت: كشفت، وظهرت بحيث لا تخفى على أحد من مؤمن أو كافر . فأهل الكفر يقبعون فيها، وأهل الإيمان يكتفون بالمرور عليها، فكل من له عين يبصر يرى هذه الجحيم بنارها المستمرة.

﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾ (٣٧) وَأَثَرُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ (٣٨)

الطغيان: مجاوزة الحد فى الكفر والمعاصى، وتفضيل الدنيا الفانية على الآخرة الباقية، فمنزلة جهنم يأوى إليه، وجملة ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾ جواب إذا جاءت، والمعنى: إذا جاءت الطامة الكبرى فمن جاء طاغيا فإن الجحيم مأواه.

والآية نزلت فى النضر وأبيه الحرث: بطفئانهما واستثثارهما بالحياة الفانية. والمراد بالمأوى: مأواه، والآلف واللام عوض عن المضاف إليه.

وقوله ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ تفيد القصر لتعريف الطرفين المسند إليه والمسند وبينهما ضمير الفصل.

والمعنى: أن الجحيم هي المأوى الذى لا مأوى سواه.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ (٣٩) ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ (٤٠)

﴿مَقَامَ رَبِّهِ﴾ أى مكان ربه، والله منزله عن المكان والجهة؛ والمراد المقام بين يدى ربه يوم القيامة للجزاء.

وأضاف المقام إلى الرب تفخيما وتهويلا عظيما لشأن الله.

﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ أى زجر نفسه أن تميل إلى المعاصى فيتركها. ذكر النفس على العموم وأراد تخصيصها عليه، و«أل» فى الهوى للاستغراق، أى نهاها عن جميع الهوى والشهوات.

﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ «أل فى الجنة» تفيد النوعية؛ لأن المؤمن والمعاصى كليهما يدخل الجنة، والجنة درجات وأنواع.

وفى الآية قصر، أى: فإن الجنة مأواه لا غيرها.

وبين الآيات ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ﴾ وأثر الحياة الدنيا * ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ وبين قوله ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ * ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ مقابلة بين الطفيان وإيثار الحياة وأن الجحيم هى مأواه، وبين الاعتدال فى السلوك خوفا من الله، وعدم الركون إلى الحياة، والارتقاء بين أحضان مفاتيها، وأن الجنة هى نزله ومأواه. وهذه المقابلة بين الأشياء وتضاد بعضها ببعض، فتكون غير متماثلة أو متوافقة كما فى الآيات المذكورة.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ (١٧) ﴿

كان الكفار يسمعون أخبار القيامة ويسمعون عن أوصافها الهائلة فيسألون محمدا على سبيل السخرية والاستهزاء، ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ ؟ ومتى يقيمها الله ويثبتها وإلى أين انتهآؤها؟ يقولون ذلك استعجالا بوقوعها تهكما على رسول الله ﷺ. واستعار مرساها من إرساء السفينة إلى مستقرها ومنتهاها.

﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا﴾ (١٧) إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا﴾ (١١) ﴿

أى فى أى شىء أنت من ذكرها؟

والاستفهام جاء إنكاراً لسؤال المشركين عن الساعة. فهو ممن استأثر الله بعلمها، وينتهى علمها إليه سبحانه. وفى أى شىء أنت يا محمد من ذكرها والسؤال عنها. ورسول الله كان دائم السؤال عنها ليجيب من يسأله عنها، وفى ذلك تعجيب من كثرة ذكره لها.

وقدم الجار والمجرور ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ على المبتدأ ﴿مُنْتَهَاهَا﴾ ، لتفيد معنى القصر، أى لا يوجد علمها عند غير الله .

﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مِّنْ يَخْشَاهَا ﴾ (٤٩)

وانت يا محمد منذر فحسب، وليس عليك معرفة وقت وقوع القيامة، وأداة القصر ﴿ إِنَّمَا ﴾ ، والمقصود عليه ﴿ مُنْذِرٌ ﴾ .

وخص الإنذار بمن يخشى، وإن كان الإنذار لكل مكلف مسلم أو كافر؛ لأن الذى ينتفع بالإنذار هو من يخشى يوم القيامة دون غيره ممن لا يخشاها .

﴿ كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ (٤٦)

أى كان الكافرين يوم يرون القيامة ويشاهدونها بأبصارهم وحواسهم، ماثلة أمامهم، لم يخرجوا عن الدنيا ولم يتركوها لحظة، ولم يقادروها أبدا .

وقوله ﴿ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ كناية عن تقليل مدة الدنيا، فلم يقيموا فيها إلا عشية أو ضحى نهار .

* * *

سورة عبس مكية

(عدد الآيات ٤٢ آية ، نزلت بعد النجم)

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) ﴾

سبب نزول الآية: أتى رسول الله ﷺ صناديد قريش ومنهم أبو جهل وأمية ابن خلف والوليد بن المغيرة يدعوه إلى الإسلام، فجاءه ابن أم مكتوم وكان رجلاً مكفوف البصر، فقال للنبي ﷺ اقرئني وعلمني مما علمك الله، وقطع كلامه فأنصرف عنه الرسول وأهتم بصناديد قريش عبس أن يسلم بإسلامهم غيرهم، وعبس في وجه ابن أم مكتوم، فنزلت هذه الآية.

كان ابن أم مكتوم يسمع أصوات القوم وإن كان لا يراهم، وعلم اهتمام الرسول ﷺ بأمرهم، فقطع كلام الرسول معهم مما يستحق عليه الجزر.

وعتاب الرسول لأنه عبس في وجه ابن أم مكتوم، فيه تعظيم من الله له، وفي وصفه بأنه الأعشى ليس تحقيراً من شأنه، وإنما ذكر هذا الوصف لأنه يستحق مزيداً من الرفق والرافة، فكانه يقول لرسول الله ﷺ: لا يحق لك يا محمد أن تخصه بالغلظة والإهمال.

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ تجهم وأعرض، كلح بوجهه وأنصرف عنه.

وأصل الكلام أن يكون موجهاً لرسول الله ﷺ فيكون للمخاطب وليس للفائب، أي: عبست وتوليت، ولكنه لجأ إلى الغيبة تخفيفاً عن رسول الله! لأن خطاب المرء بما يكره فيه قسوة وضراوة. وهذا التفات عند السكاكي على غير المشهور عند علماء البلاغة^(١).

(١) التفات عند السكاكي لأنه التفات من الخطاب إلى الغيبة. الإيضاح ١٠٣ من الأرباب.

﴿أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ أى عيسى وتولى لأن جاءه الأعمى، (قال) فى الأعمى للعهد؛ لأنه أراد شخصا معينا معهودا عند رسول الله وهو ابن أم مكتوم. هذا العتاب من باب ترك الأولى. وإن كان فى ذلك إنكار على رسول الله ﷺ.

﴿وَمَا يَذُرْكَ لَعَلَّهُ يَزْكَى (٣)﴾

أى شيء يجعلك داريا بحال هذا الأعمى، اليس من المحتمل أن يتطهر بالعمل الصالح. ولعل أداة تقيد الترجى، باعتبار أن الإعراض عنه غير جائز؛ إذ يرجى تزكيه وتطهره.

قال أولا بأسلوب الغيبة ﴿عَيْسَ وَتَوَلَّى﴾، ثم التفت بأسلوب المخاطب (١). فقال ﴿وَمَا يَذُرْكَ﴾.

﴿أَوْ يَذْكُرُ فَتَفْعَهُ الذِّكْرَى (٤)﴾

﴿يَذْكُرُ﴾ معطوف على يزكى، فيدخل معه فى الترجى، أى لعله أن يذكر فتفعه الذكرى، وتقربه إلى قبول الحق. والمراد بالذكرى: العظة.

﴿أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦)﴾

أى استغنى بثروته، واستغنى عن الإيمان، فأنت له تصدى، أى تصدى، فحذفت التاء تخفيفا. وفى ذلك مزيد تنفير من مصاحبتهم والإقبال عليهم. وقدم الجار والمجرور ﴿لَهُ﴾ على الفعل ﴿تَصَدَّى﴾ اهتماما بشأن من تصدى لهم لأنهم من أكابر القوم وأغنيائهم.

﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزْكَى (٧)﴾

﴿مَا﴾ نافية، تقيد عدم العناية بأمر الكافر وترك الاهتمام به، فهو لا يتطهر من دنس الكفر، وليس عليك تزكيتهم وتطهيرهم، بل عليك فقط تبليغهم وإنذارهم فتكون نافية، أو أى شيء عليك ألا يسلم ولا يتركى؟ فتكون استفهامية، جاءت لتحقير الكافر وعدم الإصفاة له، واستهانة بمن أعرض عنه.

(١) لما فى ذلك من إنباس بعد إنباش وإقبال بعد إعراض. معان التناول - التقاسم ١٥ / ٦٠٥٧ - دار احياء الكتب العربية.

﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠)﴾

زيادة في عتاب رسول الله ﷺ. «عبر بالاسم الموصول» ﴿مَنْ جَاءَكَ﴾ إيماء إلى وجه بناء الخير، وتعظيما له^(١)، وفي ذلك إشارة إلى سعيه للدخول في الإيمان، وخشيته من الله، وغفلة الرسول عنه، ومثلك لا ينبغي أن يتصدى للغنى ويطلب عن الفقير.

ومن أول السورة إلى قوله ﴿تَلَهَّى﴾ سجع رائق جميل يدخل في السجع المطرف، لتوافق أطراف السجعات في الألف^(٢).

﴿كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١)﴾

﴿كَلاَّ﴾ أداة زجر وردع، وفيه زجر للنبي ﷺ؛ لأنه تصدى للمستغنى وأعرض عن المسترشد. والضمير في ﴿إِنَّهَا﴾ للقرآن، والقرآن مذكر، ولكنه لما كان القرآن تذكرة وموعظة أخرجه على لفظ التذكرة فأنت الضمير وقال ﴿إِنَّهَا﴾ أو أن المراد بها سور القرآن وآيات القرآن. ونكر ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ لتعظيمها ورفع منزلتها حيث إنها تذكرة عظيمة. ولذا فليس لله حاجة أن يقبله الكفار أو لا يقبلوه.

﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكِّرْهُ (١٢)﴾

أي فمن شاء اعظم به وعمل بموجبه، قدم عليه. واحتقن به

﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (١٤)﴾

أودعه الله في اللوح المحفوظ، وهذه الصحف مكرمة عند الله؛ لأنها نازلة من اللوح المحفوظ، أو مكرمة لما أودع فيها من العلم والحكمة.

﴿مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾ رفع الله قدرها، وطهرها من أن يمسها شيطان فتتزع إلى الهوى. ومنزلها عند الله عظيمة. ولذا كان التذكير للتعظيم.

﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦)﴾

(١) الإيضاح - الخطيب القزويني - تحقيق المؤلف - ص ٦٨ ط الأراب.

(٢) خلاصة المعاني - الفتى - تحقيق المؤلف - ص ٤٦٧ ط الناشر العربي.

السفرة: الكتبة، ومعنى السافر: الذى يبين الشئ ويوضحه. وهم كرام عند الله، وكرام عن المعاصى لا يقرّبونها، بل يرفعون أنفسهم عن اقتراحها، ووصفهم بأنهم بررة أى: اتقياء مطيعون لربهم.

وصف الملائكة المكلفين بحمل القرآن بثلاثة أوصاف: بأنهم سفرة، وكرام، وبررة. ويألف فى وصفهم بهذه الصفات التى فيها معنى المبالغة، وجاء تنكيرها لتأكيد هذه الصفات لهم.

﴿قِيلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ (١٧)

الآية نزلت فى عتبة بن أبى لهب، وإن كانت تصلح للعموم، يراد بها ذم كل غنى ترفع على فقير بسبب غناه.

أسلم عتبة ثم عاد إلى الكفر فدعا عليه رسول الله، أن ابعث عليه كلبك حتى يأكله، فاقبل أسد إلى رحله ومزقه تمزيقاً، فكان أبوه يندبه ويكلى عليه ويقول: ما قال محمد شيئاً قط إلا كان.

هإذا أريد بالإنسان عتبة «قال» تكون للعهد، وإن أريد به العموم كانت «أل» للاستغراق والشمول.

﴿مَا أَكْفَرَهُ﴾ تعجب من إضرام كفره، تعجب للمخلوقين وليس للخالق إذ يستحيل عليه التعجب، ويجوز أن يكون بمعنى التقرّيع والتوبيخ. فأى شئ حمّله على الكفر. والقتل من أشنع الدعوات وأشد العقوبات وأفظمها.

﴿مِنْ أَيْ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ (١٨)

استفهام أراد به تقرير الإنسان على حقارته وهوانه، وقد أجاب عن مادة خلقه، فقال:

﴿مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ﴾ (١٩)

أى خلقه من نطفة حقيرة، من ماء مهين، فلم - إذن - يتكبر ويتجبر ويترفع على الفقراء، وفى ذلك تحقير له. ﴿فَقَدَرَهُ﴾ أى قدره أطواراً نطفة ثم علقه، ثم مضغة إلى أن يتم خلقه ذكراً أو أنثى.

﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرُهُ ٢٠﴾

أى سهل خروجه من رحم أمه، وخروجه من ذلك المنفذ الضيق، والسبيل كناية عن ذلك. وهو من أعجب العجائب. أو يسر له طريق الخير وطريق الشر.

وعبر بتعريف السبيل بأل دون الإضافة فلم يقل: سبيله؛ للإشعار بعمومه؛ لأنه عام فى الإنسان والجن والمؤمن والعاصى والكافر.

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ٢١﴾

عبر بثم؛ لأن الموت بعد تيسير الحياة والولادة بفترة متراخية. وعطف أقبره بالفاء؛ لأن دفن الميت يكون بعد الموت دون مهلة.

﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ٢٢﴾

والنشر بعد الوفاة ووضع الميت فى قبره بفترة، ولذا عبر بثم التى تدل على الترتيب والتراخى.

وقال إذا شاء، ولم يقل إن شاء أنشره؛ لأن إذا تفيد تحقق وقوع الفعل، والنشر حقيقة مؤكدة لا نزاع فيها.

(وقدره، ويسره، وأقبره، وأنشره) فى الآيات السابقة من السجع القصير، وهو من السجع المتوازى.

والسجع المتوازى أن تراعى فى الكلمتين الأخيرتين، أو الكلمات الأخيرة اتفاق الوزن مع اتفاق الحرف الأخير منهما، أو منها ^(١).

وحذف مفعول المشيئة للبيان بعد الإيهام ^(٢)، أى إذا شاء إنشأه أنشره.

﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ٢٣﴾

﴿كَلَّا﴾ ردع وزجر للإنسان الكافر.

﴿لَمَّا يَقْضِ﴾ لما بمعنى لم، وليس فيه معنى التوقع، أى لم يقض الإنسان ما

(١) معيار النظار ٢ / ٨٥ ، بغية الإيضاح ٤ / ٧٩ .

(٢) الإيضاح من ١٣٧ ، وتفسير أبى السعود ٧ / ١٠٩ .

أمره الله به من الإيمان والطاعة. والضمير في قوله ﴿مَا أَمْرُهُ﴾ يعود على الله سبحانه، أى لم يقض ما أمر الله تعالى به الإنسان.

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ (٢٤)

في هذه الآية وما بعدها تعداد للنعم التي أنعم الله بها على الإنسان، وما تقوم عليه حياته من طعام وشراب.

الأمر في قوله ﴿فَلْيَنْظُرِ﴾ للتبصير على نعم الله وتأملها حتى يدرك فضل الله عليه، وكيف هيا له أسباب المعاش.

﴿أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ (٢٥)

جاءت هذه الآية دون عطف؛ لأنها بدل اشتمال من طعامه في الآية السابقة، لأن الماء سبب في الإنبات والنبات هو ما يطعم به الإنسان.

وصببنا الماء استعارة لنزول الماء، والاستعارة أقوى لما فيها من نزول الماء بقوة دون انقطاع، فحاجة الناس إلى الماء مستمرة أبداً إما للشراب أو الطعام. والصب يكون من الماء، وأسند لله تعالى مجازاً لأنه السبب.

﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾

شق الأرض بالنبات يكون بعد هطول الأمطار، لذا استعمل ثم التي تفيد التراخي، ولم يستعمل الفاء فلم يقل فشققنا الأرض، لأنها تفيد التعقيب، فاستخراج النبات من الأرض بعد المطر يحتاج إلى وقت. ومن ثم كان التعبير بثم أدق.

وعبر بالمصدر ﴿شَقًّا﴾ حتى يكون شق الأرض حقيقة، وليس مجازاً. شققناها شقا بديما لائقاً فيخرج منها النبات على هيئة رائحة.

﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعَبًّا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩)﴾

يحدث الإنبات بعد شق الأرض مباشرة، ولذا كان التعبير بالفاء، ﴿فَأَنْبَتْنَا﴾ التي تفيد الترتيب والتعقيب أوفق. ونكر ﴿حَبًّا﴾ للتكثير، أى حباً كثير الأنواع، ههنا شاملة لكل أنواع الحب من قمح وذرة وشمير ونحو ذلك.

وذكر العنب دون أنواع الفاكهة؛ لما فيه من الغذاء والتلذذ معا، فهو من أصلح الأغذية وأكثرها فائدة. وذكر العنب بعد الحب رغم أنه يدخل فيه، لأنه يجمع بين غذاء الحب وحلاوة الطعم.

والقضب كل ما يؤكل رطباً كالبطيخ والخيار والقت.

﴿وَزَيْتُونًا وَتَخْلًا﴾ لقوائد الزيتون والتمر، وهى معروفة للجميع.

﴿وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٢٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٢١) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٢٢)﴾

الحدائق: جمع حديقة، وغلبا أى ذات أشجار متكاثفة متقاربة يدخل بعضها فى بعض فتبهر المشاهد.

يقول الفراء: القلب: ما غلظ من النخل.

وعطف الفاكهة على ما قبلها مع أن ما قبلها من العنب والنخل داخل فيها، وذلك من عطف العام على الخاص إبرازاً لتمييزها واعتدادا لشأن أنواعها الكثيرة التى ذكرت إجمالاً.

﴿وَأَبًّا﴾ الأب هو المرعى، يقول الزمخشري فى كشافه: «لأنه يؤب وينتجع». أى يطلبه الناس لمواشيهم.

فكل ما تنبت الأرض ولا يأكله الناس ولا يزرعونه من الكلأ يسمى أباً.

هذه الأصناف الثمانية المذكورة من حب وعنب وقضب وزيتون ونخل وحدائق وفاكهة وأب، خلقها الله لمتعتكم ومنفعتكم، لجميع الحيوان من إنسان وغير إنسان. مما يدل على قدرة الله سبحانه ورأفته بعباده.

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَّةُ (٢٣)﴾

﴿الصَّاحَّةُ﴾ الصاكة بشدة صوتها للأذن، وهى كناية عن النفخة الثانية، التى يبعث فيها الأموات من قبورهم. ووصفت النفخة بالصاكة مجازاً؛ لأنها ليست هى حقيقتها صاكة، وإنما يصح الناس لها، أى يستمعون.

والتعبير بإذا يدل على وقوع النفخة على وجه التوقع واليقين لأن إذا تستعمل فى المتوقع المتيقن، وليس فى المحتمل المتشكك فيه.

وجواب إذا محذوف يدل عليه قوله بعد ذلك ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ حذف اختصاراً ولأنه مفهوم من السياق، حيث ينشغل كل إنسان بنفسه.

﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦)﴾

التعبير بيفر أقوى من التعبير بيبعد، لما في الفرار من جزع واضطراب. وتدرج في الفرار من المهم إلى الأهم.

فالأخ أقل أهمية من الأم والأب، وهم أقل محبة من الزوج والابن، فتدرج من الأسفل إلى الأعلى مرتبة، وهذا شأن البلاغة عند الفصحاء. وخصهم جميعاً بالذكر دون غيرهم من الجيران والأصدقاء؛ لأنهم أخص بالقرابة وأولاهم بالحنان والرافة، ومع ذلك فهو يعرض عنهم ويفر منهم، لاشتغاله بحال نفسه.

﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧)﴾

يوم القيامة عند النفخة الثانية ترى كل أحد شغل بنفسه، وبأهوال ذلك اليوم. مما أغناه من الاهتمام بأمر غيره مهما كان أثيراً لديه في الدنيا. وانظر إلى تنكير ﴿شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ أي شأن عظيم فادح لا يجعله يفكر إلا في أمر نفسه.

﴿وَجُودَ يَوْمَئِذٍ مُسْفَرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (٣٩)﴾

﴿مُسْفَرَةٌ﴾ من أسفر الصباح إذا أضاء، أو مضئئة متهللة، بسبب الخلاص من مطالب الدنيا. ﴿وَجُودَ﴾ مبتدأ وجاء نكرة، ولا يجوز الابتداء بالنكرة، وجاز هنا لأنه في مقام التفصيل بين ما ينتظر المؤمنين وما ينتظر الكافرين. ﴿ضَاحِكَةٌ﴾ فرحة بما نالته من الثواب العميم والفضل العظيم. ﴿مُسْتَبْشِرَةٌ﴾ بما ينتظرها من خير ورضوان وكرامة.

وعبر باسم الفاعل في ضاحكة ومستبشرة تنبيها على تحقق وقوعه، وهو ما يقع بالفعل للمؤمنين من أحوال الآخرة، واسم الفاعل يدل على الحال حقيقة وعلى المستقبل مجازاً (١).

(١) بغية الإيضاح - الصمدي ١ / ١٦٣.

ثم قابل أحوال المؤمنين بأحوال الكافرين فقال:

﴿وَجُورَ يَوْمِنِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٤) تَرْفَعُهَا قَنَرَةٌ (٤٥) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٦)﴾

وجوه يعلوها غبار وكدر، مما أعد لها من العذاب، ويفشاها سواد وذلة،
فوصف أحوال الكفار بصفات جسدية تتمثل في الغبار والسواد، وصفات نفسية
من المذلة والانكسار.

وأشار إليهم إشارة البعيد ﴿أُولَئِكَ﴾ لأنهم بعيدون عن رحمة الله.

ووضع بين المبتدأ والخبر ضمير الفصل للدلالة على أنهم الكفرة الفجرة
وحدهم دون غيرهم.

* * *

سورة التكوير مكية

(عدد الآيات ٢٩ آية ، نزلت بعد المسد)

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ (١)

﴿ الشَّمْسُ ﴾ فاعل لفعل محذوف يفسره الفعل بعدها ، أى كورت الشمس كورت. والتكوير من كورت العمامة ولففتها بمعنى لَفَّ جرمها أو لف ضوئها. يقول ابن عباس: ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ أى تساقطت. فالتكوير كناية عن تساقطها.

وإسناد التكوير إلى الشمس، بأن لَفَّ ضوؤها المنبسط في الأفاق يكون إسناداً مجازياً؛ لأن الضوء لا يتصور فيه اللف.

﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴾ (٢)

﴿ النُّجُومُ ﴾ التى تظهر في السماء ليلاً، و ﴿ انْكَدَرَتْ ﴾ تناثرت وتساقطت وطمس نورها. يقول الكلبي: تمطر السماء يومئذ نجوماً فلا يبقى نجم في السماء إلا وقع على ظهر الأرض. وإسناد الانكدار إلى النجوم إسناد مجازي؛ لأن النجوم لا تتكدر من تلقاء نفسها؛ بل بفعل الخالق سبحانه.

﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ (٣)

سيرت عن وجه الأرض فصارت هباء، أو سيرت في الهواء فصارت سراباً.

﴿ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾ (٤)

﴿ الْعِشَارُ ﴾ النوق الحوامل، وهى أعز أموال العرب، لأن أكثر أموالها وعيشها من الإبل. هذه الأموال من الإبل تهمل يوم القيامة، من هول الحساب وفظاعته، تهمل بلا راع، فهم مشغولون بأنفسهم عن غيرهم ولو كانت أعز شيء لديهم.

قال الإمام أبو الليث: هذا على وجه المثل؛ لأن في القيامة لا تكون ناقة عشراء. أى تمثيل هول القيامة بحال لو كان للرجل ناقة عشراء لمطها واشتغل بنفسه، وهو أقرب إلى الصواب.

﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥)﴾

﴿الْوُحُوشُ﴾ ما توحش من دواب البر ولا يستأنس، والله يحشرها كلها إظهاراً للعدل، فيقتص للجماء ^(١) من القرناء.

﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (٦)﴾

﴿سُجِّرَتْ﴾ صارت نارا متوقدة، وأرسل مالحها على عذبتها حتى امتلأت. وفي ذلك وعيد شديد بهول يوم القيامة، وما يشاهده الناس فيه مما يملأ قلوبهم خوفاً وجزعا.

﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧)﴾

أى قرنت كل نفس بما يلائمها، المؤمن مع المؤمن، والكافر مع الكافر، والعاصي مع العاصي، ونحو ذلك.

﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (٩)﴾

﴿الْمَوْءُودَةُ﴾ الفتاة التي وثدت، أى دفنت حية فى التراب. ﴿سُئِلَتْ﴾ توبيخ لمن وأدها، وتقطيع لما فعل. وكان العرب إذا ولدت لأحدهم بنت دفنتها حية؛ مخافة الفقر أو العار.

﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (١٠)﴾

أى تنشر صحائف الأعمال للحساب؛ لأنها طويت عند الموت.

﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (١١)﴾

﴿كُشِطَتْ﴾ قلعت وانتزعت من مكانها. كما يكشط الجلد عن الشاة على سبيل الاستعارة.

﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (١٢)﴾

﴿سُعِّرَتْ﴾ أوقدت إيقادا شديدا، فتصير نارا تضطرم.

(١) الجماء: التي ليس لها قرن.

﴿ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُنزِلَتْ ﴾ (١٧)

أى أدنيت من المتقين ليدخلوها. وهى لا تدنو بنفسها من أحد، ولكن المؤمنين هم الذين يدنون منها. فهو أسلوب قلب، أراد به المبالغة فى إظهار النعيم للمؤمنين حتى إن الجنة تدنو لهم وتقرب منهم.

﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أُحْضِرَتْ ﴾ (١٨)

أى ما أحضرته عن عمل تستحق به دخول الجنة أو النار. وحذف المفعول للعلم به، والاختصار ومراعاة للفاصلة (١). وتكثير ﴿ نَفْسٌ ﴾ للعموم، أى علمت كل نفس مؤمنة أو كافرة، وأسند الحضور إلى النفس مجازاً؛ لأنها تحضر بإذن الله سبحانه. هذه الأفعال كلها التى جاءت من أول السورة حتى الآية الثالثة عشرة، جاءت مقدرة بعد إذا يفسرها مجيء الفعل بعدها، وقدرت تخفيفاً؛ لأن ذكرها مرتين لا يحتمله الكلام مادام واضحاً، وجاء بعدها ما يفسرها من أفعال.

والأفعال كلها جاءت مبنية للمفعول ما عدا الآية الثانية ﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴾ لأن الآيات المبنية للمجهول مسندة إلى الله سبحانه فهو الفاعل الحقيقى لتكوير الشمس، وتسيير الجبال، وتعطيل العشار، ونحو ذلك.

أما ﴿ النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴾ فجاءت مبنية للفاعل. مع أنها لا تختلف عن بقية الآيات، لأن الفعل إذا جاء مبنياً للمجهول وقال ﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴾ لتقل التلفظ بها على اللسان، فلمراعاة التخفيف جاءت مبنية للمعلوم وليست للمجهول كبقية الآيات.

﴿ فَلَا أَقْسِمُ بِالْخَنَسِ ﴾ (١٩) الْجَوَارِ الْكُنَسِ ﴾ (٢٠)

قال السمرقندى، أجمع المفسرون أن معنى ﴿ فَلَا أَقْسِمُ ﴾: أقسم، و (لا) زائدة، وزيادتها جارية فى كلام العرب. كما فى قوله ﴿ مَا مَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾ يعنى أن تسجد. والخنس: الانقباض والاستخفاء، وهى الكواكب، وسميت ﴿ بِالْخَنَسِ ﴾ لأنها تخنس بالنهار فتختفى ولا ترى. وهى زحل والمشتري والمريخ والزهرة وعطارد. هذا ما قاله الفراء.

(١) حلية الثب المصون - الشيخ الدمشقى ص ٨٧ ط الحلبى.

﴿الْجَوَارِ الْكُنُسُ﴾ أى تستتر كما تكنس الأطباء فى مغاراتها وسميت جوار: لأنها تجرى أفلاكها وترجع حتى تختفى فى ضوء الشمس. أقسم سبحانه بهذه الكواكب لبيان عظمتها وارتفاع رتبته.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ﴾ (١٧)

قال أهل اللغة هى من الأضداد تقول : عسس الليل إذا أقبل، وعسس إذا أدبر^(١)، والمراد إذا أدبر بدليل قوله تعالى بعد ذلك.

﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ (١٨)

يعتبر بعض اللغويين أن الأضداد تؤدى إلى اللبس؛ لأننا لا نعلم المراد به على وجه اليقين لاحتمالها معنيين متضادين، فعسس تحتل الإقبال والإدبار، ولكن ما ورد منه فى القرآن لا يؤدى إلى لبس؛ بل هو غاية فى البيان والظهور، وقوله ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ أى انتشر وظهر مطابقاً لليل إذا عسس، فمعنى عسس عندئذ: أدبر دون لبس أو شك.

والليل لا يدبر والصبح لا ينفس، وإنما الإدبار والتنفس من شيم الأحياء لا الجماد، فهو أسلوب مجازى فيه تشخيص ليل، والنهار الذى عبر عنه القرآن بالصبح. وبين ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ﴾ و﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ مقابلة تعطى الشمول لحركة الليل وحركة النهار.

أقسم سبحانه بالكواكب والليل والصبح أقسم بما يدل على أن القرآن منزل من السماء بوحى من جبريل، ووصف جبريل بأنه رسول من الله كريم لديه.

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ (١٩)

ونسب القول إلى جبريل مجازاً لأنه قول الله فى الحقيقة، ويدل على أن الرسول هو جبريل، وليس محمداً ﷺ ما جاء بعده من أوصاف:

﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ (٢٠) ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ (٢١)

فهو ذو قدرة على ما يكلف به، ومكانته مكيئة عند الله سبحانه، وهو مطاع

(١) ثلاثة كتب فى الأضداد ص ٧ . ٩٧ . ١٦٧ ط بيروت. للأصمعي، والسجستاني، وابن السكيت.

بين الملائكة، وأبعد من ذلك في الرتبة أنه أمين، ولذا عير بكم، ظرف مكان للبعيد، وقرئ ثم حرف عطف للتراخي في الرتبة؛ لأن ما بعدها أعظم مما قبلها، تعظيما للأمانة وأنها أفضل من صفاته السابقة.

لأنه أمين على وحى الله ورسالاته، معصوم من الخيانة والزلل. وأكد القول بأن واللام الداخلة على الخبر.

﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (٢٢)﴾

المراد بصاحبكم محمد ﷺ، وأنه ليس ممن يرمونه به من الجنون، فهذا محض افتراء. وهذه الآية داخلة أيضا في جواب القسم. والباء هي قوله ﴿بِمَجْنُونٍ﴾ زائدة جاءت لتقيد التوكيد بنفى الجنون عن محمد ﷺ.

وعبد القاهر يتفق مع سيبويه في أن زيادة الحروف واضحة المغزى في تقوية الكلام وتوكيده. وهذه الحروف الزائدة لا توضع إلا لغرض بلاغى^(١).

﴿وَلَقَدْ رَأَىٰ بِالْأَفْقِ الْمُبِينَ (٢٣)﴾

اللام جواب قسم محذوف، أى تالله لقد رأى محمد ﷺ جبريل بالأفق المبين، أى بمطلع الشمس من جهة المشرق، فهو مبين؛ لأن من جهته تظهر وتبين الأشياء. وأسند ﴿الْمُبِينَ﴾ إلى الأفق ووصفه به مجازا؛ لأن الأفق لا تبين به الأشياء، وإنما تظهر وتبين بطلوع الشمس في الأفق.

﴿وَمَا هُوَ عَلَىٰ الْغَيْبِ بِظَنٍّ (٢٤)﴾

أى وما محمد على القرآن بمتهم؛ بل هو ثقة فيما أنزل الله، لا يخفى من القرآن شيئا ولا يزيد عليه شيئا.

﴿وَمَا هُوَ يَقُولُ شَيْطَانٌ رَّجِيمٌ (٢٥)﴾

الرجيم: بمعنى مرجوم بالشهب، أى أن هذا القرآن لم يحن به شيطان فيلقيه على لسان محمد ﷺ.

(١) انظر الكتاب لسبويه ٢ / ٢٠٦، والأسرار لعبد القاهر الجرجاني ٤٥٨، وشرح الرضى للكافية ٢ / ٣٨١.

وهذه الباء الزائدة (بالأحق، وبضنين، ويقول شيطان) جاءت لزيادة التقوية والتأكيد. «والفراء يجيز الزيادة في القرآن الكريم، وهو في ذلك متحرر من قيود المتزمطين الذين يرفضون الزيادة في القرآن رفضاً باتاً، ظناً منهم أن في ذلك تبرئة للقرآن من الزيادة، وتنزيها له عن العبث والمطاعن، ويتكلفون في تخريج الآيات التي تحمل الزيادة تخريجاً بعيداً متكلفاً لا يتفق وروح العربية التي نزل بها القرآن»^(١).

﴿فَإِنْ تَذَبُّونَ (٢٦)﴾

الاستفهام للتبكيك والتوبيخ؛ لأنهم ضلوا عن الطريق السوي حين انصرفوا عن القرآن، وادعوا أنه سحر وكهانة. يقول الزمخشري في هذه الآية: «مثل حال من يترك الطريق الواضح اعتسافاً منه بحالهم في ترك القرآن الذي يدعوا لصالحهم ويهددهم إلى الخير».

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٢٧)﴾

أي ما القرآن إلا موعظة للخلق أجمعين، وتذكير لهم. وفيه دلالة على القصر، أي أن القرآن ما هو إلا ذكر، وكلمة ﴿ذِكْرٌ﴾ تشمل كل ما يذكره من نفع وفلاح. ونكر كلمة ﴿ذِكْرٌ﴾ لأنها عامة شاملة لكل ما يتذكر.

﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨)﴾

لمن شاء منكم الاستقامة أن يستقيم، فمفعول المشيئة محذوف للعلم به، ودل عليه أن يستقيم. وهذه الآية بدل من الآية قبلها، لأن الذين شاعوا الاستقامة وأرادوا الدخول في الإسلام هم المنتفعون بالذكر، فكانه لم يوعظ به غيرهم، وإن كانوا موعوظين جميعاً.

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩)﴾

أي وما تشاءون إلا أن يشاء الله تلك المشيئة بتوفيق منه ولطفه وكرمه. وأضاف ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ تشريفاً لهم.

(١) أثر النجاة في البحث البلاغي - د. عبد القادر حسين - ص ١٢٦ ط. نهضة مصر.

سورة الانفطار مكية

(عدد الآيات ١٩ آية ، نزلت بعد النازعات)

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ۝١﴾

﴿ انْفَطَرَتْ ۝٢﴾ انشقت لنزول الملائكة . والقطر: الشق.

وقدم في الظاهر الفاعل على الفعل، أو المسند إليه على المسند: «ليتمكن الخبر في ذهن السامع؛ لأن في المبتدأ تشويقاً إلى ذكر الخبر»^(١).

﴿ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ۝٣﴾

﴿ انتَثَرَتْ ۝٤﴾ تساقطت متفرقة.

شبه الكواكب في انتثارها باللائئ المتساقطة إذا انفرط عقدها ففيه استعارة مكنية.

﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٥﴾

أي فجر بعضها في بعض فصارت بحراً واحداً . واختلط مالحها بعذبها . فتتغير البحار عن صورتها المعهودة في الدنيا .

﴿ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٦﴾

﴿ بُعْثِرَتْ ۝٧﴾ يخرج ما في جوفها من الأموات، يخرجون أحياء لملاقاة ربهم وحسابهم. وذكر هذه الأشياء الأربعة: انفطار السماء وانتثار الكواكب، وهما يتعلقان بالعلويات، ثم تفجير البحار وبعثرة القبور، وهما يتعلقان بالسفليات.

والمراد بذلك فناء الدنيا وتخريب العالم، فكل شيء يخرج عن موضعه ويصبح شيئاً آخر جديداً غير ما عهدناه في الدنيا .

(١) بنية الايضاح من ١ / ١١٩ .

والحكمة هي هذا الترتيب: أن من يريد تخريب دار يبدأ بتخريب السقف، والسماء هي سقف الأرض، والكواكب تبع لها. ثم يشرع في تخريب البناء، والأرض بمثابة البناء، والبحار فيها وتغطي معظم مساحتها. فيخرب كل ما على وجه الأرض. عمل هندسي رائع في البناء وفي الهدم على حد سواء.

﴿ عَلِمْتُ نَفْسٌ مَا قَدَّمْتُ وَأَخَّرْتُ ۝ ﴾

أى تعلم كل نفس في هذا اليوم ما قدمت من عمل صالح، وما أخرت من عمل فقصرت في تأخيرها.

والتكبير هي ﴿ نَفْسٌ ﴾ للعموم لتشمل كل أحد بار أو فاجر، مؤمن أو كافر. وحذف المفعول به من الفعل ﴿ مَا قَدَّمْتُ وَأَخَّرْتُ ﴾، أى ما قدمته وما أخرته. «للقصد إلى التعميم في المفعول، والامتناع أن يقصره السامع على ما يذكره إذا ذكره معه دون غيره، وفيه أيضا اختصار للكلام»^(١).

قال أحد العلماء: العلم بجميع ذلك كناية عن المجازاة عليه.

والمقصود من الكلام الزجر عن المعصية، والترغيب في الطاعة.

﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝ ﴾

عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة. وقال مقاتل: نزلت في ابن الأسد بن كلفة بن أسيد، ضرب النبي ﷺ فلم يعاقبه الله تعالى وأنزل هذه الآية. لذا وصف الله بأنه كريم، كريم عن حكمة، هي حكمة الله في هداية البشر فيترفق بهم رغم أنهم يستحقون العقاب.

وعبر «بيا» أداة النداء التي تفيد البعد، والإنسان ربه أقرب إليه من حبل الوريد، فكان حقه استعمال أداة النداء التي تفيد القرب وهي «الهمزة» ولكنه استعمل أداة النداء للبعد؛ لأن الإنسان الكافر العاصي بعيد عن رضا الله سبحانه فنزل بُعد المرتبة القاصية لبعد المكان الحسى. و«أل» هي الإنسان تشمل الكفار جميعا. ﴿ مَا غَرَّكَ ﴾ ما استفهامية للتوبيخ والاستهجان، وتعجبا من جرأته حتى

(١) الإيضاح من البلية ١ / ٢٢٢.

عصى ربه، فما الاستفهامية خرجت عن أصل وضعها واستعملت في معنى آخر وهو التعجب مجازاً.

﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ استفهام يقتدر إلى جواب، ولكنه محذوف مفهوم من السياق. أى غره حمقه وجهله ورعوثته. وذكر صفة ﴿ الْكَرِيمِ ﴾ دون سواها؛ ليلقن عبده الجواب حتى يقول: غرني وجهه الكريم.

﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ (٨)

وصف الله سبحانه نفسه بصفة أخرى تدل على كرمه وتقديم نعمه للإنسان، خلقه من نطفة ولم يك شيئاً، وأودع فيه حواسه التي يبصر بها ويقوى على الحياة، وجعله متناسق الأعضاء في أحسن تقويم. ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ أى صورة شاء، وما مزيدة، لتفيد عموم الصورة. وتأكيد الكلام وتقويته كما يقول أبو عبيدة في كتابه مجاز القرآن^(١) أى ركبك حاصلًا في أى صورة شاءها. من صور الوالدين أو أحدهما، أو الأقارب أو نحو ذلك.

ولم يعطف هذه الآية على الآية التي قبلها ﴿ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾ لأنها بيان لها فبين الجملتين كمال اتصال، فلا يجوز عطف إحداهما على الأخرى؛ لأن العطف يلزم منه التغاير بين الجملتين. يقول الفراء: «الواو تطرح إذا كانت الجملة الثانية بياناً للجملة الأولى»^(٢).

﴿ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ ﴾ (٩)

﴿ كَلَّا ﴾ أداة زجر وردع عن اغترارهم بكرم الله سبحانه وفيها معنى الإضراب عن الجملة السابقة، وتحقيق غيره.

﴿ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ ﴾ تكذبون بالبعث والحساب، وتعاودون الكذب المرة بعد الأخرى كما يدل عليه التعبير بالفعل المضارع.

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴾ (١٠)

(١) مجاز القرآن ١ / ٢٢٦ - أبو عبيدة - الخالجي.

(٢) معاني القرآن - الفراء ٢ / ٦٨ ، ٦٩ دار الكتب.

أى عليكم ملائكة حفظة تحصى أعمالكم، وقدم الخبر ﴿عليكم﴾ ، اهتماما بشأنهم، وأكد وجود الحفظة بـإن واللام.

وقد وصف الله الملائكة بأنهم:

﴿كَرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢)﴾

مثليا عليهم معظما من شأنهم، وفى تعظيمهم تعظيم لأمر الجزاء، وأنه عند الله من جلائل الأعمال. ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ سواء أكان قليلا أم كثيرا.

وقال: يعلمون ولم يقل يكتبون ما تفعلون؟ لأن الحفظة لا تكتب كل شيء يصدر عن العبد؛ لأنهم يتوقفون عند اقتراف العبد لسيئاته؛ رجاء أن يرجع عنها ويستغفر ربه. وفى ذلك إنذار شديد وتهويل عظيم للعصاة، وتبشير وإسعاد للمؤمنين.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفَجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤)﴾

ذكر أهل الجنة وهم الأبرار، وأهل النار وهم الفجار، لأن الأشياء تتميز بأضدادها، وبين الآيتين سجع مرصع؛ «لأن الفاظ الآية مثل ما يقابله فى الآية الأخرى وزنا وتقفية. وهو من أحسن طرق السجع، وذلك لأن قرائنه متساوية فى الشكل والمقدار»^(١).

وكل من الآيتين مؤكدة بـإن واللام الداخلة على الخبر؛ لتقرير ما دخلت عليه من نعيم أو جحيم. وجاءت نعيم وجحيم على وزن فعيل لإبراز صفة الاستمرار؛ أى نعيم مقيم، وجحيم دائم. فالتكثير جاء للتفخيم فى الأولى وللتهويل فى جحيم الثانية. وبين الآيتين مقابلة شيئين بشيئين: الأبرار والنعيم. والفجار والجحيم.

﴿يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الَّذِينَ (١٥)﴾

﴿يَصَلُّونَهَا﴾ يقاسون وهجها وحرها.

﴿يَوْمَ الَّذِينَ﴾ يوم الجزاء الذى أنكروه.

(١) البنية - ٤ / ٨٠ ط الآداب.

ولم تعطف الجملة على ما قبلها، لتقدير سؤال وهو: ما حالهم فيها؟ ف قيل ﴿يُصَلُّونَهَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ وهو ما يسمى عند البلاغيين بشبه كمال الاتصال.

جاء ذلك على تقدير السؤال والجواب كالذى جرت به العادة فيما بين المخلوقات^(١). وفي ذلك تهديد عظيم للعصاة والمنكرين للرسالة وأغراضها. ويؤكد هذا التهديد قوله:

﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (١٦)﴾

أى لا يفارقونها أبدا ولا يغيبون عنها طرفة عين.

والباء زائدة لإفادة تأكيد امتثالهم ومعاينتهم للنار واستقرارهم فيها.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ (١٧)﴾

استفهام أراد به تعظيم هول ذلك اليوم، أى شيء مريع فظاعة ذلك اليوم، تعجيبا له لخروجه عما ألف الناس.

﴿ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ (١٨)﴾

كرر ذلك تهويلا لأمره، وتعظيما لقدره، وتفخيما لشأنه، وثم تفيد الترقى فى الرتبة، أى: من شيء فظيع إلى شيء أفظع منه.

وكرر بالاسم الظاهر دون ذكر للضمير، فلم يقل:

وما أدراك ما هو؟ هذا التكرار بالاسم الظاهر تأكيد لهوله وفخامته.

﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (١٩)﴾

أى اذكروا يوماً لا تملك فيه نفس لنفس شيئا من النفع أو الضرر، وتنكير شيئا لإفادة التقليل، أى لا تملك ولو قليلا لغيرها من النفوس.

﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ وحده، وليس لأحد سواه، فأفاد التخصيص، وإن لم تذكر معه أداة للقصر التى ذكرها البلاغيون.

(١) فن البلاغة ص ٢٥٥ - عالم الكتب - المؤلف.



سورة المطففين مكية

(عدد الآيات ٣٦ آية ، نزلت بعد العنكبوت)

هذه السورة تحت على الوفاء بالكيل والميزان، والاحتراس عن البخل والنقصان، والبعد عن التطفيف ولو كان يتعلق بالشئ الحقير، فالعبد يحاسب على هذا التطفيف والنقص كما يحاسب على الذنب الكبير. والله يتوعد جشع التجار وخبث كيلهم وما يصدر عنهم من رذائل، يتوعدهم بألوان من العذاب أيسرها البقاء في الحفر الضيقة. فذكر القرآن السجين لأهل العصيان، والعليين لأهل الإيمان.

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ (١)

لما قدم النبي ﷺ المدينة، كان أهلها من أخبت الناس كيلاً، فأنزل الله هذه السورة، فأحسنوا الكيل بعد ذلك.

ويفتح السورة بالقرع الشديد والعذاب الأليم.

دعا عليهم بالويل والهلاك، والمطففين: الذين يبخسون حقوق الناس في الكيل أو الميزان. وفي ذلك تهديد وزجر لهم، وكلمة الويل تذكر عند وقوع البلاء. «والتطفيف» على وزن تفعيل، وهو يأتي للتكثير؛ لأن البخس كان من عادتهم، ويحدث كثيراً منهم، فتناسب وزن التفعيل.

﴿الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ (٢)

هذه الآية وصف للمطففين وطريقتهم في الكيل، فإذا اشتروا من الناس استوفوا حقهم كاملاً وزيادة، ولذا كان التعبير بعلى التي تفيد الاستعلاء، أى استعلوا عليهم فركبوهم بما أرهقوهم من زيادة الكيل الذى أخذوه، وهو ليس استعلاء حقيقياً، وإنما هو على سبيل المجاز والاستعارة التبعية. وقدم الجار

والمجورور ﴿عَلَى النَّاسِ﴾ قدمه على الفعل ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ لإفادة التخصيص أى يستوفون على الناس خاصة، أما أنفسهم فيستوفون لها.

﴿وَإِذَا كَالُوا لَهُمْ أَوْ وَزَنُوا لَهُمْ يُخْسِرُونَ (٣)﴾

أى إذا كالوا لهم أو وزنوا لهم، أى باعوا للناس ينقصون الكيل والميزان.

قال الزمخشري فى الكشف: كان المطففين لا يأخذون ما يكال ويوزن إلا بالمكاييل دون الموازين! لتمكثهم بالاكتيال من الاستيفاء والسرقة لأنهم يحتالون فى المله. وإذا أعطوا كالوا أو وزنوا لتمكثهم من البخس فى النوعين جميعا.

﴿كَالُوا لَهُمْ أَوْ وَزَنُوا لَهُمْ﴾ أى كالوا لهم أو وزنوا لهم.

حذفت اللام تخفيفا كما تقول نصحتك ونصحت لك، وفى حذف اللام غرض بلاغى، إذ أنها تقيد الاستحقاق، وهم منعوا المشتريين حقوقهم فى الكيل، فكان حذفها مطابقا لتصرفهم.

﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥)﴾

الآية مسوقة لتهويل ما فعلوه من التطفيف، وتعجيب من حالهم فى الاجترار عليه، وألا استفهام بمعنى الإنكار.

﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة للبعيد، حيث إنهم فى بعد عن الله سبحانه لا يلوذون برحمته، إذ لا يخطر ببالهم أنهم سيبعثون.

واليوم العظيم هو يوم القيامة وما يحدث فيه من أمور عظام كالبعث والحساب والجنة والنار.

ووصف اليوم بأنه عظيم مجازا، وإنما تقع الأشياء العظيمة فيه.

وعبر بالظن ﴿أَلَا يَظُنُّ﴾ لأن من يظن البعث والحساب لا يتجاسر على التطفيف فى الكيل والميزان، وإذا كان هذا شأن من يظن، فما بالك بمن يتيقن بالبعث، وهل ثمة مبالغة أعظم من هذه المبالغة؛ تهويلا فى أمر التطفيف واستغظا لشأنه.

﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦)﴾

أى يوم يقوم الناس من قبورهم لأمر رب العالمين، دلالة على عظم ذنب التطفيف ومزيد إثمه وعقابه، والمراد بالناس، هم المطففون؛ لأنهم يقومون متسربلين فى عرقهم إلى أنصاف آذانهم. وكونهم قائمين فى غاية الذلة، ونهاية الخشوع والانكسار.

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينَ (٧)﴾

﴿كَلَّا﴾ ردع لما كانوا عليه من التطفيف، والفقلة عن البعث والحساب. ﴿سِجِّينَ﴾ فسرته قوله تعالى بعد ذلك بأنه كتاب مرقوم مسطور، دونت فيه أعمال الشر الصادرة عن الكفرة والفاستقين ومنهم المطففون. واللام ﴿لَفِي سِجِّينَ﴾ جاءت لإفادة التوكيد.

والسجين مبالغة فى المسجون إذلالا لهم وتحقيرا لشأنهم، فقد وصف كتاب الفجار بالخسة والحقارة على سبيل الاستخفاف بهم.

يقول ابن عباس: السجين هو الأرض السابعة السفلى.

﴿وَمَا أَذْرَاكَ مَا سِجِّينَ (٨) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (٩)﴾

استفهام أراد به التهويل من أمره بحيث لا يدرك أهواله أحد، وحذف المسند إليه، أى هو كتاب مرقوم، للعلم به وذكر ما يعود عليه قبله.

﴿وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٠) الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الَّذِينَ (١١)﴾

أى هلاك عظيم يوم القيامة لمن كذب بالبعث، وبما جاءت به الرسل، فقد وصف المكذبين بأنهم الذين يكذبون بيوم الدين وهو يوم القيامة. وصفة التكذيب صفة ذم يستحقون عليها العذاب.

﴿وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢)﴾

وهذا اليوم يصدق به المؤمنون الذين صفت قلوبهم، أما المعتدون الأثيمون فهم وحدهم الذين يكذبون به، ففى الآية قصر، أى أنها نفت التكذيب عن كل أحد، وأثبتته للمعتدين الأثيمين فحسب.

والتكثير في ﴿مُعْتَدٍ أَثِيمٌ﴾ لعموم الوصف واستفحاله، أى أنه بلغ في اعتدائه وإثمه مبلغاً كبيراً لا يدرك كنهه.

وأثيم: صيغة مبالغة تدل على أنه غرق في الإثم والاعتداء حتى أصبح شراً مستطيراً. والمعتدى الأثيم من أمثال: الوليد بن المغيرة، والنضر بن الحرث وغيرهما ممن وقف من الدعوة موقفاً معادياً.

﴿إِذَا تَلَّى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٢)﴾

إضافة الآيات لضمير العظمة يفيد تعظيم الآيات التي نزل بها القرآن. والأسطورة: الحديث المزخرف الذي لا أساس له من الصحة. وإنما زخرفها محمد ليقنع الناس بها، قال ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أى هي أساطير وحذف المسند إليه لضيق المقام وإيجاز الكلام.

﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٣)﴾

﴿كَلَّا﴾ ردع وزجر للمعتدى الأثيم الذى زعم أن ما جاء به محمد ﷺ أساطير وخرافات، وليست وحياً صادقا من لدن ربه سبحانه. والرين: قتامة تكسو الطبع وتغلفه، فلا يدرك حقيقة الأشياء وكنهها.

ولاشك أن ما علا قلوبهم من رين وفساد هو السبب في حملهم على القول بأن الآيات هي من الأساطير التي تقال تزجية للفراغ والتسلية.

﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (١٤)﴾

﴿كَلَّا﴾ ردع للكسب الذى ران على قلوبهم، بخلاف ﴿كَلَّا﴾ في الآية السابقة فهي ردع عن القول بأن محمداً ﷺ يقول الأساطير. فالزجر في الآيتين يختلف باختلاف المعنى، وليس فيهما تكرار. وهم محجوبون عن كرامته، ولا يرون رحمة من الله وفضلاً. وحجبهم عن كرامة الله سبحانه أمر مؤكد بأكثر من أداة تأكيد مما لا يدع في حجبهم عن الله مجالاً للشك فيه (١).

(١) يقول الزمخشري: في الآية تمثيل. تمثل استخفاف الله بالكافرين وإهانتهم؛ لأن الملوك لا يحجبون عنهم إلا الأدنى المهاتون عندهم، واحتجابهم عنهم تعقيراً لآثامهم وبغضاً لأعمالهم.

هذه هي الصفة الأولى التي يلاقيها الجاحدون لرسالة محمد . أما الصفة الثانية فهي:

﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴾ (١٦)

﴿ ثُمَّ ﴾ تفيد بعد مرتبتهم عن الله ، فنزل بعد مكانتهم عن الرحيم صاحب الرحمة منزلة البعد الزماني .

فهم فوق حجبهم عن الله يرتقون إلى درجة أعلى في العقوبة وأشد في المهانة ، فهم يصلون العذاب الحسى والمعنوى جميعاً ، بعد العذاب المعنوى فقط الذى يتمثل فى حجبهم عن الله سبحانه .

﴿ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴾ (١٧)

يقال لهم توبيخاً وتقريفاً من جهة الزمانية ، وبنى الفعل للمجهول لأن المقصود التركيز على الفعل لا الفاعل ، فهو لهم أمر العذاب ، والتعبير باسم الإشارة ﴿ هَذَا ﴾ لأن العذاب مشاهد أمامهم فلينظروه وليذوقوه وقدم ﴿ بِهِ ﴾ على تكذبون لرعاية الفاصلة القرآنية .

بعد أن بينت السورة صفات الفجار ، شرعت فى ذكر صفات الأبرار .

﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيْنَ ﴾ (١٨)

لما ذكر حال الفجار المطففين ، أتبعه بذكر حال الأبرار الذين لا يطففون ، وكلا أداة زجر وردع ، وكررها للتأكيد على إنكارهم ما سبق من ادعاءات وإنكار .

والأبرار هم المطيعون ، فهم فى عليين ، أى ارتفاع بعد ارتفاع لا غاية له كما يقول الفراء ، ولذا عبر بصيغة المبالغة فعيل ؛ لأنهم بلغوا فى المكانة العالية مداها . وصحائف حسناتهم وضعتها الملائكة فى أرفع مكانة . وأكد ذلك بإن واللام اللتين دخلتا على الآية تأكيداً لمكانتهم السامية وتعظيماً لشأنهم الرفيع .

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴾ (١٩) كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ ﴾ الاستفهام جاء للتفخيم والتعظيم . و ﴿ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴾ خبر لمبتدأ

محذوف، أى هو كتاب مرقوم. ولابد فى الحذف من قرينة قائمة حتى لا يسلم الكلام إلى التعقيد.

يقول الخطيب القزوينى من أغراض حذف المسند إليه أن يكون ثمة اعتبار مناسب لا يهدى إلى مثله إلا العقل السليم، والطبع المستقيم ومن ذلك «وما أدراك ما هيه؟ نار حامية»^(١). والكتاب المرقوم هو كتاب أعمالهم ﴿يَشْهَدُ الْمُقْرَبُونَ﴾ يحضرونه ويحفظونه من الضياع.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾

فإذا كان كتاب الأبرار فى عليين فلا بد أن يتبع ذلك أنهم ماكثون مستقرون فى نعيم دائم ومسرة كاملة. و «فى» تفيد الظرفية، والنعيم لا يصلح أن يكون ظرفاً؛ لأنه معنى من المعانى، ودخلت عليه «فى» على سبيل المجاز والاستعارة التبعية فى الحرف.

«فإذا قلت زيد فى نعمة» فالنعمة ظرف مجازاً، واستعملت كلمة «فى النعمة» المشتملة على زيد كاشتغال الظرف الحقيقى على المظروف كذا فى المغربى»^(٢).

والمراد أن النعمة أو النعيم لا يصلح ظرفاً فى الحقيقة، ولكنه مجاز استعمل كالظرف كقولهم: الماء فى الإناء، والكتاب فى الحقيقة.

﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾

﴿الأرائك﴾ الأسرة التى فى الحجال. والأريكة لا تطلق على السرير إلا إذا كان فى حجرة، وهى بيت العروس المزين بالثياب والستور، فينظرون ماشاء لهم النظر من النعيم، أو ينظرون على الكفار وهم يعذبون ويستغيثون. والستور الذين ينظرون من خلالها رقيقة شفافة لا تحجب عنهم شيئاً.

﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾

إذا نظرت إليهم عرفت أنهم من أهل النعمة. وجوهم ناضرة مشرقة صافية

(١) الإيضاح تحقيق المؤلف - طه الأرباب ص ٦٢ - ٦٣.

(٢) شروخ التلخيص ٢ / ١١٧ - ١١٩. خلاصة المعانى للمفتى ٢٨٢ تحقيق المؤلف.

يجرى فيها رواء النعيم. والخطاب لكل أحد يراهم أو يلتفت إليهم. فذلك شيء لا يمكن إخفاؤه. وعبر بلفظة ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ﴾ دون كلمة (ترى فى وجوههم) لأن «تعرف» تستعمل فى الأشياء المعنوية الباطنة، ولكن «ترى» تستعمل فى الأشياء الحسية الظاهرة.

﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ (٢٥) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦)﴾

الرحيق: أجود الخمر وأكثرها صفاء، مختوم بصيانته، فكل ما يختتم يكرم ويصان، وآخر طعمه ريح المسك. وهو شيء أريد به التمثيل لإبراز نفاسته وطيب أريجيه.

﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ تشبيه بليغ حذف منه الأداة ووجه الشبه. أى ختامه، كالمسك. وعدّ الطيبى للتشبيه سبعة أنواع من حيث الأداة والطرفين ووجه الشبه ترتفع قيمته بحسب ما ذكر فيه وما حذف. وقد عدّ الطيبى التشبيه البليغ أقواها على الإطلاق، لما فيه من ادعاء - أى ادعاء أن المشبه هو عين المشبه به - وتعميم. أى أن ما فيه من وجه الشبه يعم جميع الأوصاف^(١).

وفى ذلك أى فى هذا الرحيق يرغب الراغبون ويتنافسون فيه. والأمر فى قوله ﴿فَلْيَتَنَافَسِ﴾ للحض والترغيب على العمل الذى يؤدى إلى هذا النعيم.

﴿وَمَزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ (٢٧)﴾

وصف الرحيق بوصف آخر، أى ينصب عليهم من علو. وممزج بماء عين تجرى من أعلى إلى أسفل، و ﴿تَسْنِيمٍ﴾ من سنام البعير، وهو أعلى مكان فى بدنه.

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (٢٨)﴾

﴿عَيْنًا﴾ منصوبة على الحال، وهى وإن كانت غير مشتقة إلا أنها موصوفة بقوله ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ والباء فى ﴿بِهَا﴾ زائدة، أى يشربها المقربون. ونكر ﴿عَيْنًا﴾ لدحها وتعظيمها.

(١) كتاب التبيان - العليسي - ط عالم الكتب من ٢١٦.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴾ (٢٦)

كان كفار مكة يستهزئون بالمؤمنين في الدنيا لإيمانهم الصادق وفقدهم المدقع كعمار بن ياسر، وصهيب الرومي، وبلال بن رباح وغيرهم.

وقدم من الذين آمنوا على قوله ﴿ يَضْحَكُونَ ﴾ رعاية للفاصلة القرآنية.

وذكر الفعل مضارعاً ﴿ يَضْحَكُونَ ﴾ مع أن المعنى ماضٍ، وحقق مضيه بقوله ﴿ كَانُوا ﴾ استحضاراً لصورة ضحكهم واستهزائهم، والسخرية كانت أشد ألماً وأثراً في نفس المؤمن من العذاب الجسدي الذي يلاقيه.

﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴾ (٢٧)

يغمز بعضهم لبعض بأعينهم وأجفانهم وحواجبهم مستخفين بهم متهمكين عليهم.

﴿ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴾ (٢٨)

﴿ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴾ انصرفوا معجبين بما هم فيه من الشرك والمعصية. وفكه صيغة مبالغة على وزن فَعَلَ، أي أنهم كانوا مسترسلين في هذا التفكه لا يكفون عنه؛ بل هم مشغوفون به، حتى أصبح دأبهم وعادتهم.

﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴾ (٢٩)

إذا رأى الكفار المسلمين في أي مكان وصفوهم بالضلال؛ لاتباعهم محمداً ﷺ ونبذ دينهم الذي ورثوه عن الآباء والأجداد. وأشاروا إليهم: هؤلاء ضالون غرر بهم محمد. فالإشارة هنا ﴿ هَؤُلَاءِ ﴾ تحقيراً من شأن المؤمنين، ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴾ فيها زيادة تأكيد منهم على ضلال المؤمنين، بيان واللام.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴾ (٣٠)

ما كان المشركون على المؤمنين بحفظة عليهم حتى يوجهوهم الوجهة التي يريدونها لهم.

﴿ حَافِظِينَ ﴾ اسم فاعل يدل على الحال وليس الاستقبال. ولكنه أراد أن الكفار

ليسوا حافظين على المؤمنين في أى وقت سواء أكان ماضيا أو حاضرا أو مستقبلا،
أى ينفى عنهم هذه الصفة في كل الأوقات. وفى ذلك تهكم واستخفاف بالمشركين.

﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٢٤)﴾

فى الآية تشبيهه ضمنى، اليوم يضحك المؤمنون من الكفار كما كان الكفار
يضحكون منهم فى الدنيا.

﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (٢٥)﴾

ينظرون إلى الكفار وهم فى آياس حالة وأذل مكانة، بينما المؤمنون فى أرغد
عيش وأبهى مسرة، جالسين على الأرائك ينظرون إلى الكفار وهم فى ذلة وانكسار.
يجددون النظر إليهم الفنية بعد الفنية، لذا كان التعبير بالفعل المضارع ﴿يَنْظُرُونَ﴾
أوفى بتصوير هذه الحالة.

﴿هَلْ ثَوْبَ الْكُفَّارِ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٢٦)﴾

﴿ثَوْبٌ﴾ أثيب، أى هل جوزى الكفار بما كانوا يفعلونه فى الدنيا بالمؤمنين؟
وكلمة الثواب تطلق على الخير والشر فى القرآن الكريم.

فالاستفهام جاء للتقرير، وبأنهم عوقبوا على ما بدر منهم من عمل طالح
فى دنياهم. وعبر بالفعل الماضى ﴿ثَوْبٌ﴾ مع أن عقوبة الكفار تقع يوم القيامة،
تحقيقا لوقوع العقوبة عليهم، وهل ثمة شيء مؤكد أكثر من أنه وقع فى الزمن
الماضى وانتهى.

* * *

(١) تقع فى الخير كقوله تعالى ﴿فَأَنبَأَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا﴾ جَنَاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴿المائدة ٨٥﴾. وتقع فى الشر
كقوله تعالى ﴿فَأَنبَأَكُمْ سَعْمًا يُفْهِمُ﴾ آل عمران ١٥٢.

سورة الانشقاق مكية

(عدد الآيات ٢٥ آية ، نزلت بعد الانفطار)

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۖ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۖ ﴾ (٢)

﴿ السَّمَاءُ ﴾ فاعل لفعل محذوف يفسره ما بعده عند البصريين، ومرفوع بالابتداء عن الكوهيين. والفعل ﴿ إِذَا ﴾ كان محذوفاً - وهو رأى البصريين، فقد حذف تخفيفاً لعدم اللبس، وعدم التكرار.

وإذا كان متقدماً على أنه مبتدأ ثم جاء الفعل بعده ﴿ انشَقَّتْ ﴾ يحمل ضمير المبتدأ، وهو ضمير يعود على السماء كان ذلك تقوية لمعنى الانشقاق؛ لأنه أسند مرتين: مرة باعتباره خبراً، ومرة باعتباره فعلاً أسند إلى ضمير المبتدأ، وتكرار الإسناد يقوى الفعل. ولذا كانت الآية أبلغ من قولك «إذا انشقت السماء» لأن الآية تعطى المعنى قوة يعبرى منها التعبير الثانى الذى خلا من التقديم^(١).

والسما تنشق ليوم القيامة وأهواله، فتنزل منها الملائكة. و ﴿ إِذَا ﴾ «تأتى للقطع بوقوع الشرط، وتستعمل فى مقام الجزم، ولذلك غلب لفظ الماضى معها على المستقبل، لكونه أقرب إلى القطع بالنظر إلى لفظه»^(٢).

﴿ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ يقول الفراء الواو زائدة، وأذنت جواب الشرط.

ومعنى ﴿ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا ﴾ انتقادات وامتثلت لأمره وطاعته، أى استحقت له. والاستماع ليس من شأن السماء فهي لا تسمع لأنها لا تتصف بحاسة السمع، فالكلام جاء على سبيل الاستعارة التمثيلية. حيث شبه طاعتها وانقيادها بإذنها لربها وإجابته لما يأمر وتحقيقه. ﴿ وَحُقَّتْ ﴾ جعلت جديرة بالاستماع والانقياد.

(١) من البلاغة ص ١٠٦ عالم الكتب.

(٢) المصباح لابن الناطم - ص ٥٢ - ط. مكتبة الآداب.

﴿ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴾ (٢)

﴿ مُدَّتْ ﴾ اتسعت يوم القيامة لوقوف الخلائق عليها للحساب، وسويت كما يسوى الأديم ويبسط، فلا يبقى عليها بناء ولا جبل إلا دخل فيها.

﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ (٤)

لما مدت الأرض ويبسطت رمت بما فى جوفها من الموتى، وخلت غاية الخلو حتى لم يبق فى باطنها شيء.

وصف الأرض بأنها تلقى ما فى بطنها وتخلو منه ليس على الحقيقة، وإنما هو على المجاز، لأن ذلك من فعل الله سبحانه.

﴿ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ (٥)

أى على الأرض السمع والطاعة، شأنها شأن السماء. فعلى كل منهما الانقياد والإذعان وتحقيق أمر الله.

﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴾ (٦)

(ال) فى الإنسان تقيد جنس الإنسان، ويشمل المؤمن والكافر، والخطاب عام لكل مكلف. و ﴿ كَادِحٌ ﴾ تسعى إلى لقاء ربك فى جهد ومشقة، أو تسعى فى العمل بالدأب والاستمرار. ﴿ فَمُلَاقِيهِ ﴾ ملاق جزاء عملك، والضمير يعود على غير مذكور. و ﴿ كَادِحٌ ﴾ اسم فاعل يفيد كدحه فى حال حياته، وليس فى المستقبل بعد مماته؛ لأن اسم الفاعل يفيد الحال لا الاستقبال.

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَوْتَىٰ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ (٧)

أما لتفصيل ما بعدها من أحوال المؤمنين الذين يُعطون كتبهم بأيمانهم لما فيها من حسنات. والتعبير بالاسم الموصول (من) للتعريف بقضية معلومة وهى ما ينتظره المؤمنين من ثواب عظيم، وتميزهم عن غيرهم من الكافرين^(١).

﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ (٨)

(١) معيار التقاطع الزنجاني ٢ / ٩ ط دار المعارف.

﴿يُحَاسِبُ﴾ حساباً سهلاً لا مناقشة فيه، إذ غفرت له سيئاته فيعرف ذنوبه ثم يتجاوز عنها. ونكر ﴿حَسَاباً﴾ لغرض التقليل والتيسير، وهو ما وضحه الوصف بعده ﴿يَسِيرًا﴾.

﴿وَيَقْلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۝٩﴾

ينصرف إلى أهله من الزوجة والأولاد، مسروراً بحسابه الهين، متهجياً بما أوتي من خير وكرامة.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ۝١٠﴾

وهذا الكافر الذى يؤتى بكتابه من وراء ظهره؛ لأن يده اليمنى مغلولة إلى عنقه ويده اليسرى خلف ظهره، أى يعطى كتابه بشماله، لأن شماله من وراء ظهره، فوراء ظهره كناية عن شماله.

﴿فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ۝١١﴾

أى إذا قرأ كتابه دخل الروح قلبه وقال: يا ثبوراه مناديا نفسه لما اعتراه من مصائب وما ينتظره من عذاب، والثبور: الهلاك. وهو مشتق من المثابرة، وسمى هلاك الآخرة ثبوراً لأنه لازم لا يزول. ويدعو ثبوراً: أى قارب الهلاك وسيقع فيه لا محالة. وقد حان أوانه.

﴿وَيَصْلَى سَعِيرًا ۝١٢﴾

أى يدخل نار جهنم المستعرة المتأججة. ويتقلب فى جحيمها. ونكر «سعييراً» لإبراز هولها وأنها تصل إلى غاية لا تدرك.

﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۝١٣﴾

أى كان مع أهله فى الدنيا مسروراً؛ لأنه يتبع هواه ويحقق رغبته وشهوته دون أن تخطر الآخرة على باله. و«فى» مستعملة مجازاً لأنها دخلت على الأهل، والأهل لا يصلح ظرفها.

﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ۝١٤﴾

أى ظن أنه لن يرجع إلى الله، وهذا كناية عن إنكاره البعث و«يحور» كلمة حبشية معناها يرجع. ويقول القرطبي إنها من كلام العرب والرسول ﷺ يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الحور بعد الكور» أى أعوذ بك من الرجوع إلى النقصان بعد الزيادة.

﴿يَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا (١٤)﴾

(يلى) إيجاب بعد نفى (لن يحور) أى، بل ليحورن ويبعثن ويجزى على أفعاله عند من لا تخفى عليه خافية، فهو بصير بها، عارف باقتراكم لها.

﴿فَلَا أَقْسِمُ بِالشَّفَقِ (١٥)﴾

(لا) زائدة، جاءت لتأكيد القسم.

والشفق: الحمرة التى تكون بعد غروب الشمس، وهو قول أهل اللغة جميعا. والشفق مشتق من الشفقة وهى رقة القلب. والشمس عند غروبها تكون رقيقة ضعيفة لاشك.

﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (١٦)﴾

قال أهل اللغة، وما وسق أى وما جمع وحوى فى طياته من النجوم وما ينتشر من الحيوان، وما يتحرك من الهوام، وظلمته تغطى الجبال والبحار والصحارى.

﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (١٧)﴾

اتسق: اجتمع وتكامل ضوءه.

أى أقسم بثلاثة أشياء: الشفق والليل والقمر. أى الظلام والضياء وما بينهما من الشفق. أى أقسم بالأزمة كلها، فالزمن إما ظلام وإما نور، وإما بين هذا وذاك. والقسم به يكون عظيما عند من أقسم به.

﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ (١٨)﴾

يخاطب النفس البشرية جمعاء، أى ستلقون يوم القيامة أحوالا بعد أحوال، كل حال مطابقة لأختها فى الشدة والهول. وهى جواب القسم. و (عن) بمعنى بعد، أى طبقا بعد طبق.

﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٦)﴾

الاستفهام للإنكار، وأى مانع لهم يجعلهم لا يؤمنون بمحمد.

﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ (٢٧)﴾

وأى مانع يجعلهم لا يسجدون إذا قرئ عليهم القرآن، كناية عن الخضوع والاستكانة؛ لأنهم كانوا يصفقون استهزاء بالقرآن. والعرب أرياب فصاحة وبلاغة، فإذا استمعوا إلى القرآن كان لابد أن يعلموا كونه معجزا، فيلاقونه بالتجلة والاحترام لا بالتصفيق والاستهزاء.

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ (٢٨)﴾

وبدلا من أن يقابلوا القرآن بالتعظيم والإكبار يكذبون به وبمن يتلوه عليهم. أى يكذبون القرآن ويكذبون محمدا. وعبر بالاسم الظاهر «الذين كفروا» بدلا من الضمير «هم» فيسجل عليهم كفرهم. «وحذف المفعول به هنا لقصد المبالغة فى التكذيب، ونزل الفعل المتعدي منزلة اللازم لأن القصد إلى نفس الفعل والتركيز عليه، ومن جهة أخرى، لما فى ذلك من الاختصار وظهور القرائن»^(١).

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (٢٩)﴾

أى أعلم بما يخفون فى صدورهم من مقت وتكذيب، وأفضل التفضيل «أعلم» تفيد أن الله سبحانه أعلم من كل البشر، - فالبشر مخلوقات لله - بما تجيش به صدورهم وما تضرمر قلوبهم.

وجعل ما يضمرون من حقد وغل ويقضاء فى صدورهم بمنزلة الشيء الذى يحفظ فى وعاء لا يخرج منه شيئا على سبيل الاستعارة.

(١) المصباح - ابن الناجم ص ٤٧ ط. مكتبة الأديب.

﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٧٤)﴾

البشارة تكون في الأشياء المحبوبة لا المكروهة، والعذاب والآلمه من الأشياء المقيتة التي لا تصلح لها البشارة، وإنما يصلح معها الإنذار فوضع التبشير موضع الإنذار على سبيل الاستعارة التهكمية. وفي ذلك استهزاء بهم، وتهكم عليهم بكل ما فيه من لذع وحدة. والأليم: من صيغ المبالغة التي تفيد شدة الألم في الآية الكريمة.

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٧٥)﴾

استثناء منقطع من الذين كفروا، والمراد بهم المؤمنون الذين آمنوا إيماناً صادقاً وصفت نفوسهم من الكدر والموجدة، واتسمت أعمالهم بالصلاح، كان جزاؤهم أجراً عظيماً، متصلاً لا يتقطع.

«وقدم المسند - وهو الجار والمجرور (لهم) - على المسند إليه وهو (أجر) للاختصاص، أى اختصاص المسند إليه بالمسند»^(١)، أى أن الأجر للذين آمنوا وعملوا الصالحات وحدهم دون غيرهم من الكفار الذين سبق ذكرهم في الآية السابقة. وتكثير «أجر» لتعظيم أجرهم ورفعته عن الله تعالى.

* * *

(١) المصباح ص ٢٨.

سورة البروج مكية

(عدد الآيات ٢٢ آية ، نزلت بعد الشمس)

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ١﴾

﴿الْبُرُوجِ﴾ معناها القصور، وهى منازل الكواكب، وعددها اثنا عشر برجاً، الحمل والثور والجوزاء، والسرطان والأسد والمنبلة، والميزان والعقرب والقوس، والجدى والدلو والحوت.

أو ﴿الْبُرُوجِ﴾: منازل القمر، وحسن القسم بها لما فى سير القمر وحركته من الآثار العجيبة. وإطلاق البروج على هذه الكواكب مبنى على تشبيهها بالقصور من حيث إن القمر ينزل فيها.

﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ٢﴾ وَشَاهِدٍ مَّشْهُودٍ ٣﴾

﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ هو يوم القيامة، وقد أجمع المفسرون على ذلك.

وروى ابن عباس أن المشهود هو يوم القيامة، والشاهد هو الجمع الذين يحضرون فيه، ولا حضور أعظم من ذلك. وأقسم الله باليوم الموعود وهو يوم القيامة تنبيهاً على قدره وعظم شأنه.

ونكر ﴿شَاهِدٍ مَّشْهُودٍ﴾ لإيهام وصفه حتى تذهب فيه النفس كل مذهب ولا تستطيع أن تحده أو تقف على أوصافه. أو كما يقول ابن الناطم فى مثل هذا القول: «لأن فى شأنه ارتقاعاً إلى حد يوهم أنه لا يمكن أن يعرف»^(١).

﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ٤﴾

هذه الآية وقعت جواب قسم، تقديره لقد قتل أصحاب الأخدود، والقتل كناية

(١) المصباح من ٢٥ ط مكتبة الآداب.

عن اللعن؛ لأنه من لوازمه. والمراد أن كفار قريش ملعونون كما لعن ﴿أَصْحَابُ
الْأَخْدُودِ﴾. و ﴿الْأَخْدُودِ﴾: شق طويل عظيم في الأرض كالخندق.

و ﴿أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ﴾ ثلاثة هم: أنطيانوس الرومي بالشام، وبختنصر
بفارس، وذو نواس بنجران.

قالوا هي ﴿أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ﴾ أقوالا كثيرة مضمونها: أن ناسا من الكفار
صنعوا أخدودا في الأرض وأشعلوه نارا وعرضوا المؤمنين عليها، فمن رجع
عن دينه تركوه، ومن أصر على الإيمان أحرقوه. وأصحاب الأخدود هم الذين
أحرقوا المؤمنين.

﴿النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ (٥)﴾

بدل اشتغال من الأخدود؛ لأن الأخدود مشتمل على النيران و ﴿ذَاتِ
الْوُقُودِ﴾ وصف للنيران بأنها مشتملة عظيمة تسمع لها طائفة. ويرتفع لهيبها
بقدر ما وضعوا في الأخدود من حطب. ولم تعطف هذه الجملة على ما قبلها
لكمال الاتصال.

﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦)﴾

أي لعنوا حين أهدقوا بالنيران وتسلوا بإحراقها للمؤمنين. وعلى تفيد
الاستعلاء، وليس حقيقة أنهم استعلوا على النار ووقفوا عليهم بأرجلهم. وإنما هو
تعبير مجازي أراد به أنهم كانوا يطلون عليها مشرفين على ما يصدر عنها من لهب
عظيم. والتعبير بلفظ ﴿قُعُودٌ﴾ بدلا من شهود؛ لما في لفظة القعود من إطالة
الجلسة والتسلى بالمشاهدة؛ لأن المرء يلجئ إلى القعود حين لم يكن على عجلة من
أمره، ويود الاستزادة من الحديث أو المشاهدة.

﴿وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧)﴾

قدم الجار والمجرور ﴿عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ للاهتمام بأمر أفعالهم القبيحة المنكرة
للمؤمنين. و ﴿شُهُودٌ﴾ كناية عن أنهم لم تأخذهم بالمؤمنين رافة، وإنما كانوا في
قسوة مريئة حيث كانوا يتلذذون بإحراقهم. وقدم أيضا ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنهم كانوا
هم الغرض من المشاهدة.

﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨)﴾

أى ما أنكروا عليهم إلا إيمانهم، وهو من ألوان البديع التى تسمى بتأكيد المدح بما يشبه الذم. ووجه التأكيد أنه نفى عنهم أولا النقمة ﴿وَمَا نَقَمُوا﴾ فهى صفة مدح. فإذا جاء الاستثناء ظن أنه يستثنى من المدح صفة ذم، ولكن تأتى صفة مدح أخرى غير متوقعة وهى الإيمان ومن ثم تأكد المدح ^(١) فما أنكروا عليهم ذنبا إلا إيمانهم. وعبر بالمضارع ﴿إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ مع أنهم آمنوا فى الماضى، لأنهم مستمرين فى إيمانهم مداومون عليه، لا يفتر عنهم لحظة.

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩)﴾

وصف الله ذاته بصفات تدل على عظمته وهخامته، ومن كان كذلك كان مستحقا للعبادة جديرا بها. ﴿وَالسُّلْهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أى شهيد على كل ما تفعلون من إحراق للمؤمنين، وشهيد على المؤمنين حين يحرقون. وشهيد صيغة مبالغة، أى لا يفوته شيء ولا يخفى عنه شيء. وفى ذلك وعيد شديد لأصحاب الأخدود. ووعد خير للمؤمنين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ

وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠)﴾

المراد بالذين قتلوا كل من فعل ذلك، فاللفظ عام وليس خاصا بأصحاب الأخدود.

﴿وَقَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ﴾: أى امتحنوهم حين عرضوهم على النار وأحرقوهم ولم يتوبوا؛ لأنهم لو تابوا لخرجوا من هذا الوعيد بأن لهم عذاب جهنم وعذاب الحريق. وعذاب جهنم بسبب كفرهم، وعذاب الحريق بسبب أنهم أحرقوا المؤمنين.

﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ قدم الخبر وهو الجار والمجرور

(١) انظر الإشارات والتنبهات فى علم البلاغة - محمد بن على الجرجاني - ص ٢٨٤ ط تهضة مصر.

لأهميتهم واستحقاقهم للعذاب، فلما استحقوا هذا العذاب قدم ما يدل عليهم اهتماما بهم وأنهم جديرون بالعذاب.

وتكرار العذاب مرة بأنه عذاب جهنم وأخرى بأنه عذاب الحريق، فهما عذابان مختلفان. وأحدهما ليس كالآخر، لذا جاء العطف الذى يفيد المفارقة بينهما.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ۝ ﴾ (١)

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ عام يشمل المؤمنين جميعا وعملوا عملا صالحا، استحقوا بسبب إيمانهم جنات تجري من تحتها الأنهار، وهذا هو الفوز الذى لا يعدله فوز.

«وعرف المسند إليه بالموصولية ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ إيماء إلى وجه بناء الخبر، حيث جعل ذريعة إلى التعريض بالتعظيم لشأن الخبر» (١).

و ﴿ لَهُمْ جَنَّاتٌ ﴾ قدم الخبر لنفس العلة البلاغية المذكورة فى الآية السابقة ﴿ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ﴾.

﴿ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ والأنهار لا تجرى، وإنما الذى يجرى هو الماء فى الأنهار؛ والنهر هو الحفرة المتسعة المستطيلة التى يتدفق فيها الماء. فإسناد تجرى إلى الأنهار مجاز عقلى علاقته المكانية.

﴿ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴾ ذلك إشارة محسوسة للجنات البعيدة المكانة الرفيعة المنزلة، فقال «ذلك» بلام البعد ولم يقل «ذاك» وعرف الفوز الكبير «بال» لإفادة التعظيم والتضخيم.

والفوز مصدر وعبر به مبالغة فى فوزهم.

و ﴿ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى الجنات فكان حق الكلام أن يقول «تلك» وإنما عدل إلى ﴿ ذَلِكَ ﴾؛ لأن المراد إخبار الله تعالى بحصول هذه الجنات، وهذا الإخبار يعود عليه ﴿ ذَلِكَ ﴾ وليس «تلك» ويدل هذا الإخبار أيضا على كونه راضيا عن هذا الجزاء.

(١) بغية الإيضاح ج ١ / ٨٨ عبد المتعال الصعدي مكتبة الآداب.

﴿إِنْ يَبْطِشْ رَبُّكَ لِشَدِيدٍ (١٢)﴾

البطش: هو الأخذ بشدة وعنف.

والآية توحى بشدة الوعيد لمن عصى الله، فعقابه للظلمة والجبابرة أليم شديد، ويخبر النبي ﷺ بذلك ليطمئن على أن من كفر برسالته سيأخذه أخذ عزيز مقتدر، وأكد ذلك بأكثر من أداة من أدوات التوكيد وهي إن واللام. ونكر «شديد» وجاء بها القرآن على صيغة المبالغة بيانا لعقوبتهم الشديدة الدامغة.

﴿إِنَّهُ هُوَ يَبْدِئُ وَيَعِيدُ (١٣)﴾

ضمير الفعل «هو» بين المستند إليه والمستند يفيد القصر: أى أنه وحده الذى يبدئ العذاب للكفار ويعيده مرة أخرى بعد أن تتفحم أجسادهم فيخلقها من جديد ويعاود تعذيبها. والتعبير بالفعل المضارع يبدئ ويعيد، لاستحضار صورة البدء والإعادة، والإحساس بمشاهدتها.

﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ (١٤)﴾

عرف المستند «الغفور الودود» لتخصيصه بالمستند إليه^(١). أى أنه وحده الغفور المتوود لعباده بقبول التوبة والإحسان إليهم.

﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٦)﴾

﴿الْعَرْشُ﴾: السرير، والله منزّه عن ذلك. وإنما هو كناية عن الملك والسلطان. و﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ صفتان للمدح، والمجيد صفة تجمع بين كرم الذات، وكرم الفعال. ومجيد أكثر مبالغة من ماجد، ولذا عبر بصيغة المبالغة ليدل على كمال عطائه وشدة كرمه.

﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ جاء بصيغة المبالغة ﴿فَعَالٌ﴾ وهى أبلغ من «فاعل لما يريد»، أى أنه إذا أراد فعل دون أن يثنى عزمه شيء أو أحد.

(١) البنية ١ / ٨٢.

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (١٧) ﴾

الاستفهام جاء للتقرير، أى: قد أتاك.

وهذه الجملة جاءت مؤكدة لما تقدم من شدة بطشه وكونه فعالا لما يريد.
وفى حديث الجنود وقصة فرعون وثمود تسلية لرسول الله ﷺ وتسرية عنه.

قد أتاك ما فعلوا من التكذيب وما فعل بهم من التعذيب، فذكر قومك يا محمد بأن سيصيبهم مثل ما أصاب فرعون وقومه.

﴿ فِرْعَوْنُ وَثَمُودُ (١٨) ﴾

قدم ذكر فرعون مع أن ثمود أقدم - وهم قوم صالح - لأن قصة فرعون مع موسى كانت أشهر عند قريش من صالح مع ثمود، ولرعاية الفاصلة من جهة أخرى.

وجعل من قصة فرعون وقومه، ومن قصة صالح وقومه أنموذجا لبيان حال الكافرين مع من أرسل إليهم من رسل، ولكنه أراد بيان حال المؤمنين مع الكفار في جميع الأزمنة وليس في زمن قوم صالح أو قوم فرعون فحسب، ولذا قال:

﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (١٩) ﴾

أى ليس هذا حال فريق من الكفار دون فريق، وإنما هو أمر شائع فيهم جميعا لا يتخلف عنه أحد من الكفار في أى زمن من الأزمان.

و﴿ فِي تَكْذِيبٍ ﴾ ﴿ فِي ﴾ تفيد الظرفية، والتكذيب لا يصلح أن يكون ظرفا: لأنه شيء معنوي، فهو تعبير مجازى.

﴿ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ (٢٠) ﴾

الإحاطة بالشئ: حصره من جميع جوانبه بحيث لا يستطيع أن يتغلب منه، وهو تمثيل لتجسيم أحوال الكافرين بأنهم لا يمكنهم التخلص أو الفرار من حكم الله عليهم. فإله محيط بهم كإحاطة السوار بالمعصم، جل سبحانه.

﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (٢٢) ﴾

أى أن القرآن متناهم فى الشرف والكرم والبركة، ولذا «نكر» قرآن مجيد دلالة على تفخيمه وتعظيمه، ووصفه هذا الوصف بأنه «مجيد» وهى أدل على هذه الصفة من ماجد، لما فيها من صيغة المبالغة. فهو قرآن شريف عالى الطبقة بين بقية الكتب السماوية. مصون من التغيير والتبديل.

﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ لا يمسه إلا المطهرون، ومصون من وصول الشياطين إليه. محفوظ عند الله لا يطلع عليه إلا الملائكة.

وقدم الخبر المسند وهو الجار والمجرور ﴿فِي لَوْحٍ﴾ على المسند إليه وهو المبتدأ ﴿مَّحْفُوظٍ﴾ لأن المسند مختص بالمسند إليه، أى أن اللوح مختص بحفظ القرآن الكريم^(١).

* * *

(١) المصباح - ابن الناطم ص ٢٨ - ط مكتبة الآداب.

سورة الطارق مكية

(عدد الآيات ١٧ آية، نزلت بعد البلد)

﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ١ ﴾

أقسم سبحانه بالسماء، لعظمها وما فيها من عجائب.

والطارق : النجم ؛ لأنه يطلع بالليل، وما أتاك ليلاً فهو طارق، قاله الفراء والزجاج والمبرد ؛ قاله أقسم بالسماء وبالنجم دلالة على قدرته وحكمته.
وه « آل » فى الطارق تقيد الجنس حتى يشمل كل جنس النجم.

﴿ وَمَا أَذْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ٢ النُّجْمُ الثَّاقِبُ ٣ ﴾

استفهام يفيد فخامة أمر الطارق ورفعة قدره .

﴿ النُّجْمُ الثَّاقِبُ ٣ ﴾ : جواب عن السؤال السابق ما أدراك ما هو ؟ ولذا جاء بدون عطف، وحذف المسند إليه لتعنيته، أى : هو النجم الثاقب.
والثاقب : المتوهج، وسمى ثاقباً ؛ لأنه يتقب بنوره ظلام الليل.

﴿ إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ٤ ﴾

الآية وقعت جواباً للقسم، أى ما كل نفس طيبة، أو شريرة إلا وعليها حافظ مهيمن وهو الله سبحانه وتعالى « فאלله خير حافظاً » والآية فيها قصر أداته إن النافية ولما لأنها بمعنى إلا .

وفى ذلك ترغيب للعمل الطيب وتغيير من العمل السيئ.

يقول زكريا الأنصارى : الآية جواب قسم، و « ما » مخففة مزيدة و « إن » نافية ولما بالتشديد بمعنى إلا ^(١).

﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ٥ ﴾

(١) فتح الرحمن ص ٦٠٦ ط بيروت .

فلينظر الإنسان نظر فكر حتى يعرف أن الذى بدأ خلقه من نطفة قادر على بعثه وإعادته.

﴿ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) ﴾

« خلق من ماء » تفسير وإجابة عن السؤال والإجابة، أو بين التفسير والمفسر. « لأن المقصود بالبيان والتفسير هو التوضيح وإنجلاء الخفاء الذى يقتضى المقام إزالته »^(١).
« والماء الدافق » المنى الذى يتدفق عند الجماع. ودافق بمعنى مدفوق، والماء يكون مدفوقا وليس دافقا، والدافق هو صاحب الماء.
فهو مجاز عقلى علاقته اسم المفعول، كما تقول عيشة راضية، وهى مرضية.

يقول الآمدي : جاء فاعل بمعنى مفعول قالوا : عيشة راضية بمعنى مرضية، ولمح باصر وإنما هو مبصر فيه وأشياء لذلك كثيرة معروفة، والتعبير بدافق بدلا من مدفوق، أى باسم الفاعل بدلا من اسم المفعول أغرب وأظرف »^(٢).
وجعل ماء الرجل وماء المرأة واحدا، « من ماء » لامتزاجهما فلم يقل خلق من ماءين .

والصلب : ظهر الرجل، وترائب المرأة : ضلوع صدرها وعظام نحرها، ولذا يتحمل الوالد أسباب معيشة الولد، وتشدد رقة الأم ومحبتها للولد. فالظهر قوى والصدر رحيم رقيق، فهو مجمع المحبة، والظهر عماد القوة .

﴿ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) ﴾

أى أن الله قادر على إعادته بالبعث بعد مماته، وأكد قدرته على الإعادة .
وبأن واللام .
وقدم « على رجعه » لبيان أن أمر رجعه سهل ميسور عليه، ولأهميته للمتكربين.

(١) شرح مفرد الجمان - السيوطي - ص ٦١ ط الحلبى .

(٢) الموازنة ١ / ٢١٦ ط - دار المعارف .

﴿ يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ (٩)

تبلى : تختبر، والسرائر : جمع سر، كناية عن القلوب حيث تختفى فيها أسرار العباد، والقلوب مكن الأسرار، فتعرض الأعمال وتتشعر الصحائف .

﴿ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ (١٠)

« من قوة » من « زائدة جاءت لتأكيد النفي، أى ليس له قوة على الإطلاق فى ذلك اليوم، ولا أحد من الأنصار. والناصر : الحليف، والتكثير فيها للتقليل

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴾ (١١)

قال أهل اللغة : الرجع : المطر، يقول الزجاج وسمى المطر رجعا ؛ لأنه يرجئ ويرجع ويتكرر، فهو مأخوذ من ترجيع الصوت، وهو إعادته .

يقول عبد القاهر الجرجاني : قيل للسماء ذات الرجع ؛ لأن شمسها وقمرها يغيب ويطلع وبعض نجومها يرجع .

﴿ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴾ (١٢)

وذكر ما يقابل السماء وهو الأرض.

قال أبو عبيدة والفراء : ذات الصدع، أى تشق وتتصدع بالنبات فالسماء تسقط المطر، والأرض ترتفع بالنبات، والمطر يحيى الأرض فتخضر بالنبات، فبالها من مقابلة حسنة .

﴿ إِنَّهُ نَقُولُ فَصْلٌ (١٣) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (١٤) ﴾

أى أن القرآن نزل بالجد ولم ينزل باللعب، فهو فاصل ببيانه بين الحق والباطل، وأكد ذلك بوجهين .

الأول : أكد لفظه بأنه قول فاصل بين الحق والباطل بأداتى التوكيد : إن واللام .

والثانى : أكد مرة أخرى حين قال وما هو بالهزل، كأنه قال إنه قول جد، ثم قال هو جد لا هزل فيه .

وبهذا سلب عن القرآن الكريم كل صفة تمت إلى الهزل أو اللعب أو التسلية ونحو ذلك .

والباء هي قوله « بالهزل » زائدة جاءت لتأكيد نفي الهزل عن القرآن .

﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٤) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٥) ﴾

يقول الزجاج : إنهم يخاتلون النبي ﷺ، ويظهرون ما هم على خلافه .

وعبر بالمصدر « كيدا » لتأكيد مخاللتهم، كأنها مصنوعة ومكونة من الكيد

بكل تفاصيلها ونسجها .

« وأكيد كيدا » فليس من صفات الله سبحانه أن يكيد لأحد، وإنما هي من

باب الاستدراج، وجاء على سبيل المشكلة أى تحدث القرآن بأسلوبهم، فعندما قال

« يكيدون كيدا » عبر بمثل ما وصفهم به فقال وأكيد كيدا .

والمشكلة من المحسنات المعنوية تجرى في الكلام لتحسين الأسلوب العربي .

وهو من الجزاء على الفعل بمثل لفظه كقوله: (وجزاء سيئة سيئة مثلها) (١)

وربما كان أول من أطلق على هذا النوع اسم المشكلة أبو على الفارسي العالم

النحوي (٢) .

﴿ فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَمَهُلُهُمْ رُويدا (١٧) ﴾

فلا تستعجل عليهم يا محمد بالعذاب، وارفق بهم، فلا مفر من انتقامي

منهم. و « رويدا » مصدر مؤكد لفعل محذوف : أى أمهلهم إمهالا رويدا أى قريبا.

وكرر الأمر، « مهل وأمهل » للتوكيد، وخالف بين اللفظين، فالأول مطلق، والثاني

مقيد برويدا. وهى فتح الرحمن : خولف بين لفظيهما طلبا للخفة (٣) .

* * *

(١) الصحاح - ابن فارس ١٩٦ طه المؤيد .

(٢) الحجة - أبو على الفارسي ١ / ٢٢٦ .

(٣) فتح الرحمن - أبو زكريا الأنصاري ص ١٠٦ .

سورة الأعلى مكية

(عدد الآيات ١٩ نزلت بعد التكوير)

﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) ﴾

التمسبيح يفيد تنزيه الله سبحانه عن كل ما لا يليق بجلاله، والمراد : نزه اسم ربك أن يسمى به أحد سواه فلا تذكره إلا وأنت خاشع معظّم له .
والأعلى : صفة للرب، فهو - جل جلاله - عالى المكانة على الخلق جميعا، لا يحيط به وصف الواصفين، فهي صفة كاشفة مبيّنة لقدر الله .

﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) ﴾

وصف آخر للرب بأنه خالق الإنسان مستويا في قيامته. وعبر بالاسم الموصول تقخيما لشأن الله وجلاله .

و« خلق فسوى » أى خلقه مستويا فى آن واحد، فلم ينزل من بطن أمه غير مستوى الخلقة، ثم سواه بعد ذلك، وإنما خلقه وسواه، معاً، فخرج إلى الحياة وهو بصفة الاستواء والاستقامة .

هذه الآية وما تشمله من صفة الله سبحانه تفيد المدح لذاته والتعجب من خلق الإنسان وتسوية أعضائه .

﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) ﴾

صفة أخرى للرب، وفيها طى لمفعولات لم تذكر، أى قدر خلق الإنسان من ذكر وأنثى، وهدى الذكر إلى إتيان الأنثى وكيف يأتيها، أو هداه لطريق الخير والشر، فحذف المفعول لعدم تعيّن فرد من أفراد بل كل ما يصدق عليه التقدير والهداية، فيفيد العموم والشمول دون التعيين والخصوص .

﴿ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (٥) ﴾

صفة أخرى لله سبحانه، أخرج النبات من بطن الأرض وجعله موجودا بعد

أن كان معدوما، وظاهرا بعد أن كان مختفيا، والمرعى مكان الرعى، والمراد به النبات مجازا لمعلاقة المكانية .

يقول الخطيب القزويني في كتابه الإيضاح . أما الغرض من الوصف فلكونه مفسرا للموصوف كاشفا عن معناه، مبينا له تمام الإبانة (١) .

جعله غشاء : أى هشيمًا جافًا كالغشاء الذى يحمله السيل من رغبة على تشبيه النبات بالهشيم، والأحوى : لون يميل إلى السواد مثل صدأ الحديد، أى اسودَّ النبات بعد اخضرار .

هذه الصفات المتعددة المذكورة فى السورة تفيد الكشف عن قدرة الله وعظمته، وأن هذه الصفات يتميز بها الخالق عن المخلوق، فليس فى مقدور الإنسان أن يخلق ويسوى الروح وتتآلف مع الجسد، أو يسوى أخلاقه وخصاله إن قدر على تسوية جسده وأعضائه. وليس فى مقدور العلم أن يقدّر مستقبل الإنسان ويهديه إلى الوصول إليها. وليس فى استطاعة الإنسان أن يخرج النبات من جوف الأرض إلا بمشيئة الله سبحانه - وأن يمنع جفاف النبات ويبسه إن أراد الله جفافه ويبسه. فكل هذه الأشياء من صفات الله وحده، وهو القادر أن يبقياها أو يعدمها، فهو على كل شيء قدير، والإنسان مهما عظم فهو غير قادر على فعل شيء دون مشيئة الله سبحانه.

والتعبير بالفاء فى قوله ﴿ فَجَعَلَهُ غَاشًاء أَحْوَى ﴾ لم يأت اعتباطاً ؛ وإنما أتى ليدل على أن خضرة النبات يعقبها مباشرة - دون فاصل زمنى - صيرورته هشيمًا يابسًا بعد أن كان أخضر يانعًا، فالفاء تدل على الترتيب والتعقيب .

وفى ذلك أيضا إشارة إلى أن فترة الحياة الدنيا الخضرة يعقبها فناء وسكون، وأن الأحوال تتبدل سراعًا دون مهلة أو ترصد .

ثم ينتقل القرآن إلى ذكر الهداية الخاصة برسول الله ﷺ بعد أن ذكر الهداية العامة الشاملة للكون من إنسان ونبات فيقول :

﴿ سَنَقْرُبُكَ فَلَا تَنسَى (٢) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (٣) ﴾

(١) الإيضاح ص ٧٩ .

أى «فلا تنسى» مما تقرأه شيئاً من الأشياء إلا ما شاء الله أن تنساه .
 فالمفعول به حذف للعموم، أى لا تنسى القرآن أو الآيات .
 وقال «فلا تنسى» بزيادة الألف مراعاة للفاصلة مع الآيات السابقة .
 وفى ذلك وعد كريم من الله باستمرار الوحي وتلقى محمد ﷺ للقرآن .

﴿ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾

الاستثناء منقطع بمعنى لكن، لكن تنسى ما نسخه الله سبحانه، والنسخ
 إنساء، والله يقول أيضاً : ﴿ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ الكهف ٢٤ .

﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ﴾ (٧)

أى يعلم الظاهر والباطن، والإعلان والسر، أى يعلم كل شىء يدور فى الكون،
 وهذه فائدة الطباق، أو ذكر الضدين ؛ لأنك إذا علمت الضدين فقد علمت كل ما
 يحيط بهما، فتدخل فيه ظاهرة العموم .
 وقيل المراد بالجهر إعلان الزكاة، وما يخفى المراد به : إخفاء الصدقة ؛ لأن
 الزكاة فريضة وعدم إعلانها يؤدى إلى التهمة، والصدقة ليست فريضة فيحسن
 إخفاؤها .

﴿ وَنَيْسَرَكَ لَيْسَرَى ﴾ (٨)

ضمّن نيسرك معنى نوفقك، واليسرى : المراد بها لعمل اليسرى ؛ لأن
 اليسرى وصف للعمل اليسر فى الدين والدنيا، ونهونه عليك حتى تحفظه وتعمل
 به . وجاء الحذف اختصاراً وإيجازاً، وعبر بنون العظمة « نيسرك » لأن عظمة
 المعطى دليل على عظمة المعطاء .

﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ (٩)

الأمر فى « ذكره » للإرشاد والنصح والتبويه، والفعل وإن تقدّم إلا أن معناه
 التأخير، فهو جواب شرط لثن، والتقدير : إن نفعت الذكرى فذكر . وقدم الجواب
 مع أن موضعه التأخير للاهتمام بأمره .
 أو أن جواب الشرط محذوف دل عليه المتقدم، وجاء الحذف للعلم بالمحذوف
 وتميئه وعدم التباسه بغيره .

وعبر « بأن » لأنها تفيد الشك، والذكرى قل أن تتفع، فكان دخول إن عليها دون « إذا » أمرا لازما .

﴿ سَيَذْكُرُ مَنْ يَخْشَى ﴾ (١٥)

يخشى فاعله ضمير يعود على مَنْ، وتكرار إسناده دليل على تقوية الفعل والعمل به، فمرة أسند الفعل إلى ضمير الفاعل الذى يعود على مَنْ، ومرة أسند إلى « مَنْ » باعتباره خيرا .

والمفعول به محذوف لتعينه والعلم به، أى سيذكر من يخشاه، أى يخشى الله، وحذف المفعول به للإبقاء على الفاصلة المختومة بالالف حتى تسير السورة كلها على منوال واحد وحرف واحد وهو الألف .

﴿ وَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴾ (١٦)

يتجنب الذكر ويبعد عنها الأشقى من الكفار، لإصراره على الكفر، وانهماكه فى معاصيه، وتوغلته فى عداوة النبى ﷺ .

والأشقى: المبالغ فى معاصيه. وبين ﴿ سَيَذْكُرُ مَنْ يَخْشَى ﴾ وبين ﴿ وَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴾ مقابلة اشين باشين، والمقابلة فيها تطابق بين الكلام من نواح مختلفة فى المعنى. ووصف الأشقى بأنه:

﴿ الَّذِي يَصَلَّى النَّارَ الْكُبْرَى ﴾ (١٧)

ليؤكد أن مصيره العذاب الأكبر، يقول النسفى فى تفسيره (١) يدخل فى نار جهنم، والصغرى نار الدنيا « ولذا كان التعبير بأفعل التفضيل لبيان المفاضلة بين نوعين من العذاب : عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، والبون شاسع .

وعُرف النار « بآل » لتفخيمها وشدة حرارتها، ومدى إيلاها .

﴿ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴾ (١٨)

لا يموت فيها فيستريح من العذاب، ولا يحيى حياة ينتفع بها، فلا حياة ولا موت وإنما فى قلق دائم وتوتر مستمر أشد وقعا من العذاب نفسه، وذلك كقوله تعالى ﴿ لَا يَقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ﴾ فاطر ٣٦ .

(١) تفسير النسفى ٢/٣٥٠ .

والطبرى يقول: العرب إذا أرادوا وصف رجل بوقوعه فى شدة شديدة، قالوا: لا هو حي ولا هو ميت، فحاطبهم الله بما يعرفون، والتردد بين الحياة والموت أفضح من صلتى النار الكبرى. واستعمل ثم التى تفيد الترتيب والتراخي، وذلك للمدى البعيد بين صلتى النار الكبرى والتردد بين الحياة والموت، فالثانية أشد وأقسى، لأنها تتعلق بالمعذاب المعنوى لا الحسى .

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴾ (١٤)

أى نجا من المكارة، وتطهر من الكفر واتعظ بالذكرى .
ودخول (قد) على الفعل الماضى تفيد التأكيد، والفعل الماضى يفيد تحقق الوقوع. أى أكد وقوع الفلاح على كل من يتزكى ويتطهر .
« وَمَنْ » لفظها مفرد، ومعناها متعدد، فهى تقع على كل شخص يتزكى وليس على فرد واحد .

﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ (١٥)

ذكر اسم ربه خوفاً وإجلالاً، ذكره بلسانه وقلبه، « فصلى » فأقام الصلوات الخمس، فالحذف جاء إيجازاً واختصاراً .
وإضافة اسم الرب إلى ضمير « من تزكى » فى الآية السابقة، تشرىفاً للمضاف إليه .

﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ (١٦)

بل تفيد الإضراب عن الآيات السابقة التى يتجلى فيها الفلاح والطهر والصلوة، أى لا تفعلون ذلك، بل تؤثرون الحياة الفانية الرخيصة .
وصف الحياة بالدنيا، للكشف عن وضاعتها وخستها، وعدم جدوى التمسك بها، والارتقاء فى أحضانها، وعبر بتؤثرون بدلا من تختارون ؛ لأنها أوضح فى إعادة المعنى وأقوى فى التأثير، لما فيها من معنى التفصيل أكثر من الاختيار .

﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ (١٧)

الواو للحال، أى حال الآخرة وهى الجنة أفضل وأدوم من حال العاجلة وهى الدنيا، وحذف المتعلق بالفعل، ليفيد الشمول أى : أبقى من كل شئ مَرَّبَك فى حياتك، وخير منه .

﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (١٩) ﴾

الإشارة إلى ما ذكر سابقاً من الفلاح والتطهر حتى صار واضحاً كأنه مشار إليه، مائل أمام الأعين، وإبراز الشيء المعنوى فى صورة الشيء المحسوس يزيده وضوحاً وتأكيذاً، وقوة وتأثيراً.

إن هذا ثابت ومؤكد فى الصحف السابقة على القرآن، و«الصحف الأولى» كناية عن صحف إبراهيم وموسى التى أتى ذكرهما فى الآية اللاحقة.

ثم بيّنها ووضحها وأخبر عنها بأنها صحف إبراهيم وموسى، صحف إبراهيم الخليل كانت عشر صحائف. وصحف موسى هى الألواح التى كتبت فيها التوراة.

والسورة كلها بعدد آياتها التسع عشرة جاءت فواصلها متأخية مختومة بالألف، فبينها تناغم وموسيقى ظاهرة، غير الموسيقى الباطنة التى تتخلل الآيات

فى نظمها وترتيبها، وبناء آياتها كأنها هرم عظيم، لبناته متناسقة يتبع بعضها بعضاً فى تلاؤم واتساق وجمال وتأثير .

* * *

سورة الفاشية مكية

(عدد الآيات ٢٦ آية، نزلت بعد الذاريات)

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْفَاشِيَةِ ١ ﴾

« هل » أداة استفهام للتعجب مما ورد بعدها من الأخبار والتشويق إلى استماعه، والإشعار بأنه من الأحاديث البديعة التي يجب أن يتناولها الرواة، أو أن « هل » بمعنى قد، أى قد جاءك يا محمد حديث الفاشية ^(١) .

﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ٢ ﴾

هذه جملة مستأنفة جواب لسؤال مقدر كأنه قيل: ما هو؟ ^(٢) ونكر « وجوه » للتنوين. لأن الوجوه يوم القيامة قد تكون خاشعة من الهول وانتظار العذاب، أو متممة تدخل جنة عالية .

والتنوين فى يومئذ عوض عن المضاف إليه، أى يوم غشيان الفاشية .
وخاشعة : ذليلة خاضعة. والمراد بالوجوه أصحابها مجازا مرسلا حيث عبر بالجزء وأراد الكل .

وفى الكلام حذف مفهوم من السياق : إذا لا معدل عنه، ولا خروج عليه، أى خاشعة فى النار. وجاء الحذف إيجازا واختصارا .

﴿ عَامِلَةٌ نَاصِيَةٌ ٣ ﴾

تعمل أعمالا شاقة وهى جر السلاسل والأغلال والخوض فى النار والوقوف حفاة فى العرصات. ناصية : منهكة متعبة .

﴿ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ٤ ﴾

(١) يقول ابن جنى إن قد تعيد التحقيق، وثانى عن قصد لتفيد شروضا بلاغيا هو التأكيد ورفع الشك وتحقق الوقوع. المحاسب ٢/٢٩٧ .

(٢) وهو ما يسمى بشبه كمال الاتصال، وقد تحدث عنه المبرد فى كتابه المختضب ٤/١٢٥، والزملكانى فى كتابه التبيان فى علم البيان ٦٣ .

تدخل جحيما متنام في الحرارة والشدة، ونكر « نارا » لتفطيمها وشدتها وفظاعتها .

﴿ تُسْقَى مِنْ عَيْنِ آتِيَةٍ ٥ ﴾

الآتية من الآن الذي قد انتهى حره، فإذا أدنيت من وجوههم تناثرت لحومهم ووجوههم، وإذا شربوا قُطعت أمعاؤهم .
والتعبير باسم الفاعل في الفاشية وخاشعة، وناصبة، وحامية، وآتية جاء لغرض بلاغي كما يقول ابن جنى، لاستحضار الصورة. كما في قوله تعالى ﴿ وَكُلُّهُمْ بِاسِطٍ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ ﴾ الكهف آية ١٨ .
فاستحضر القرآن صورة الفاشية وهي يوم القيامة بأحوالها وما يحدث فيها للكافرين من عذاب .

﴿ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ٦ لَا يُمْسِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ٧ ﴾

أورد ضمير العقلاء « ليس لهم » مما يدل على أن المراد بالوجوه أصحابها .
ونكر « طعام » لبيان نوعية الطعام وأنه من ضريع، وإن كان ثمة طعام من نوع آخر كالزقوم والفلسين للآخرين، بحسب أحوالهم وآثامهم .

والضريع كما يقول الخليل بن أحمد : نبات أخضر منتن الرائحة يرمى به البحر، وهو نوع من الشوك يقال له الشبرق إذا كان رطباً، فإذا يبس فهو الضريع، وهو سم قاتل لا تقربه الدواب .

وفيه معنى القصر والاختصاص، وأداته النفى والاستثناء، من قصر الموصوف على الصفة. أي ليس لهم إلا هذا النوع من الطعام الذي تعافه الدواب ؛ لأنه سم زعاف .

هذا الطعام ليس من شأنه أن يسمن ويشبع مثل طعام الدنيا، وإنما هو شر مستطير لا يجدون سواه في الآخرة، والتكثير في (جوع) للتحقير أي لا يغنى من جوع ما .

بعد أن فرغ من ذكر حال أهل النار شرع في ذكر أحوال أهل الجنة .

﴿ وَجُودَ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةً ﴾ (X)

لم تعطف هذه الآية على ما قبلها لتباين مضمون الفريقين، فأحوال المؤمنين وما ينتظرونه من ثواب مخالف لأحوال الكافرين وما يتوقعونه من عقاب، ولهذا لم تعطف على ما قبلها ؛ لأن العطف لابد فيه من التوافق، ولا توافق بينهما .
وقدم ذكر أحوال أهل النار على ذكر أحوال أهل الجنة ؛ لما فى ذلك من تهويل أمر الغاشية وهول الحديث عنها وهيبتها حتى ينزجر الناس ويتجنبوا ما يدعو للدخول فيها والاكتماء بنارها .
وعبر بكلمة « وجود » والمراد أصحابها من المؤمنين مجازا مرسلًا لعلاقة الجزئية .

ونكر « وجود » لأنها الفريق الثانى للتضريح والتتويج .
والتتويج فى « يومئذ » عوض عن المضاف إليه المحذوف كما فى قوله « وجود يومئذ خاشعة » .
ناعمة : متنعمة فى الجنة، وحذف الجار والمجرور للعلم به ولعدم إيهام معنى غيره .

﴿ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةً ﴾ (٩)

اللام تفيد التعليل، أى لأجل سعيها فى طاعة الله ترضى بثوابها جزائها عند الله .
وقدم (لسعيها) وهى متعلقة (براضية)، للاهتمام بشأن سعيهم فى الدنيا، وما أثبوا عليه فى الآخرة .

﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ (١٠)

أى عالية القدر لأن فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين .
ونكر جنة وعالية، لتعظيم الجنة وعلو قدرها عند الله .

﴿ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لِأَغْيَةٍ ﴾ (١١)

يقول الضراء والأخفش : لا تسمع فيها كلمة لغو، والنكرة فى سياق النفى تفيد العموم، أى لا تسمع أى نوع من اللغو حتى ولو كان ضئيلا .

﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ (١٧)

التكثير هي « عين » يفيد الجنس والعموم أى عيون كثيرة وقدم الخبر الجار والمجرور على المبتدأ لبيان الاهتمام بأمر الجنة وما فيها .

وقد يكون الغرض من التقديم اختصاص الجنة دون غيرها بالعيون .
والتعبير باسم الفاعل في قوله : ناعمة، وراضية، وعالية، ولاغية، وجارية .
لاستحضار صورة هذه الأوصاف للجنة ونزلاتها من المؤمنين .

﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴾ (١٨)

قدم الخبر لأن المراد أن في الجنة لا في غيرها هذا النوع من الأسرة،
والسرر جمع سرير، لبيان أنها سرر من نوع خاص، موصوفة بأنها عالية القدر
مرتفعة السلك تناسب عظمتهم وتنعيمهم .

﴿ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴾ (١٩)

الكوب : إناء بلا عروة ليمسكوا به من أى طرف تسهيلا لهم، حتى في
أبسط الأشياء لا يعانون منها، أكواب موضوعة بين أيديهم ماثلة أمامهم يشربون
منها وقت ما يريدون .

﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴾ (٢٠)

أى وسائد صغيرة صف بعضها إلى بعض، إمعانا في الرفاهية والتنعيم،
يستندون عليها للاستراحة .

﴿ وَزَرَائِبُ مِثْلُوثَةٌ ﴾ (٢١)

جمع زربى، وهو ضرب من الثياب محبب، وصف به اليسط على سبيل
التشبيه، أى بسط كالزربى، أى بسط مفرقة على الأسرة، كالثياب المحبرة في
جمال شكلها وروعة منظرها .

هذه الأشياء المذكورة في الجنة التى يتعم بها المؤمنون: من العيون الجارية،
والسرر المرفوعة، والأكواب الموضوعة، والنمارق المصفوفة، والزربى المثلثة، تدخل
في مراعاة النظر : لتقارب بعضها من بعض ودخول بعضها في بعض، فهي تكون
صورة متوافقة متلائمة، وتعطى لوحة رائعة لما يعدّه الله للمؤمنين في الآخرة .

﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ (١٧)

الهمزة للإنكار والتوبيخ لاستبعادهم وقوع البعث، فكان الكلام : أينكرون البعث والله قادر عليه، أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت؟ فهي من أعظم المخلوقات.

وخص الإبل بالذكر دون غيرها من الحيوانات ؛ لأنها تبرك فتحمّل الأثقال أما غيرها من الحيوان فلا يحمل إلا وهو قائم .

يقول الزجاج : فيه تنبيه على عظيم من خلقه، ذلك للصغير يقوده حيث يشاء، وينميه، ويحمل عليه الأثقال وهو بارك فيتھض بثقل حملة، فعل الله ذلك ليدل على توحده وقدرته العظيمة .

أما الفيل فالعرب بعيدة العهد به، لا يركب ظهره ولا يؤكل لحمه ولا يحلب درّه، والإبل من أعز مال العرب وأنفسه .

والإبل : اسم جمع لا واحد له من لفظه، وإنما واحده بعير وناقّة وجمل، ومن دلائل قدرة الله سبحانه خلق السماء ورفعها .

﴿ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾ (١٨)

رفعت فوق الأرض بلا عمد، على وجه عجيب لا يدركه العقل، وقدم ذكر (السماء) على الفعل « رفعت » لبيان أهميتها واندھاش الناظر إليها، وبنى الفعل للمجهول أى رفعها الله ؛ لتعينه، وعدم الإبهام بأن غيره هو الذى رفعها .

﴿ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ (٢٠)

نصبت على الأرض حتى لا تميد ولا تميل، فكانت الجبال من عجائب خلقه سبحانه، وطويت فائدتها للعموم لما فيها من رسوخ الأرض دون ميل، وامتلائها بما يفيد الناس فى حياتهم وشئونهم .

فالأفعال الأربعة مبنية للمجهول، كيف خلقت، وكيف رفعت، وكيف نصبت، وكيف سطحت دلالة على أن الفاعل الحقيقى هو الله دون سواء لذا طوى ذكره للعلم به .

والجمع بين السماء والأرض طباق، وبين الجبال والإبل مراعاة

للتظير فكلها تجرى في مضممار واحد، وعلى نسق واحد، فتعطى للناظر صورة خلاصة حسنة تشد الانتباه وتأسر القلوب وتسيب النفوس.

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴾ (٢١)

الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها .

والفعل جاء بصيغة الأمر للإرشاد والنصح .

وعلى ذلك بأنه مذكّر ورسالة الرسول مقصورة على التذكير دون الهداية، «إنما» أداة القصر، والمقصور عليه هو المتأخر مذكّر .

﴿ لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُسَيِّرٍ ﴾ (٢٢)

أكد رسالة محمد ﷺ بأنه مذكّر، ونفى عنه ما هو أبعد من ذلك من هداية أو سيطرة أو إجبار، وليس له أن يُكره أحدا على الإيمان .

﴿ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴾ (٢٣) فَيُعَذِّبُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴾ (٢٤)

« إلا » منقطعة بمعنى (لكن) من أعرض عن الحق، وثبت على الكفر، والضمير في يعذبه يعود على « مَنْ تَوَلَّى » باعتبار لفظها المفرد. وقدم الضمير المفعول به للاهتمام بأمر عذابه وشدته « فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ » وأكد تعذيبه بذكر مصدره « العذاب »، ووصفه بأفعل التفضيل « الأكبر » أى أنه أكبر من أى عذاب آخر لا قوة في دنياهم من جوع وقحط وقتل وأسر. فهو أشد نكالا من عذاب الدنيا .

﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴾ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ (٢٦)

الإياب : الرجوع. وقدم الخبر « إلينا » في الآية الأولى ليفيد أن مرجعهم إليه سبحانه دون غيره، وقدم (علينا) في الآية الثانية ليفيد أن حسابهم على الله دون غيره مبالغة في حسابهم وأنه مقصور على الله سبحانه .

وخاطبهم بضمير الجمع الذى يعود على « مَنْ تَوَلَّى » باعتبار المعنى لا اللفظ وذكر « ثم » التي تفيد التراخي في الرتبة والزمان لبعد منزلة الحساب عن منزلة الإياب في الشدة والهوان .

* * *

سورة الفجر مكية

(عدد الآيات ٣٠ آية، نزلت بعد الليل)

﴿ وَالْفَجْرِ ١ ﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ٤

هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ ٥ ﴿

أقسم سبحانه بهذه المخلوقات : الفجر وما بعدها ، دلالة على تعظيم ما أقسم به ورغبة شأنها عنده .

﴿ وَالْفَجْرِ ١ ﴾ ﴿

وسمى الفجر فجراً ؛ لأنه وقت انفجار الظلام عن النهار من كل يوم .
وأقسم بالفجر ؛ لأنه أول وقت ظهور الضوء من المشرق ، وانتشار الناس وخروج الطير والوحش لتصيب أرزاقها .

﴿ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ٢ ﴾ ﴿

هي العشر الأوائل من ذي الحجة ، أو العشر الأواخر من شهر رمضان المعظم، وخصها بالتكثير لتعظيمها والانشغال بها في مناسك الحج إذا كان المراد العشر الأوائل من ذي الحجة، أو التطلع إلى ليلة القدر إذا كان المراد بها العشر الأواخر من رمضان لأنها خير من ألف شهر .

﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ٣ ﴾ ﴿

«أل» في الشفع والوتر للعموم والاستغراق، فيدخل فيها كل شفع ووتر. والشفع: الزوج، والوتر: الفرد. هكذا عند العرب، وقيل هما: آدم وحواء، لأن آدم كان وترأ فشفعه الله بحواء.

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ٤ ﴾ ﴿

« أل » في الليل لإفادة جنس الليل ، ويسر : من السير ليلاً .

وأقسم به لرهبته وسكونه - وانتشار الحيوانات والآثام فيه .

« يسر » أصلها يسرى ، فحذفت الياء موافقة لرهوس الآيات ، هذا قول الخليل . والضرأ يقول : تحذف العرب الياء وتكتفى بكسر ما قبلها . وفي الآية مجاز عقلى ؛ لأنه أسند الفعل لغير ما هو له فى الحقيقة ، فالليل لا يسرى - يمضى - حقيقة ، وإنما يسرى الناس فيه ، وعلاقته الزمانية .

﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ٥ ﴾

استفهام جاء لتقرير تعظيم ما أقسم به الله سبحانه وتفضيحه من هذه الأمور المذكورة، أى أن ما أقسم به جدير أن تؤكد به الأخبار عند أرباب العقول. «لذى حجر» أى عقل ولبّ. فمن كان لديه عقل ولب، علم عظمة ما أقسم به تعالى.

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦ ﴾

المراد بعاد أولاد عاد، فعبر بالخصوص وأراد العموم مجازاً، وهم عاد الأولى، ويقال لمن بعدهم عاد الأخرى.

والرؤية هى «ألم تر» قلبية وليست بصرية، أى ألم ينته علمك بما فعل ربك بعاد. والاستفهام هنا للتقرير والتعجيب لما أصاب عاداً من دمار، فسيعذب كفار مكة كما عذب قوم عاد من قبلهم.

﴿ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ٧ ﴾

«إرم» عطف ببيان لعاد؛ إذ يرجع إلى «إرم» مجتمع عاد وثمود، فالقبيلتان تنسبان إلى «إرم».

«ذات العماد» كناية عن القوة والشدة، وهى صفة لإرم، واللام للجنس حتى تشملهم جميعاً: القليل منهم والكثير.

والعماد بمعني العمود، على تشبيه قاماتهم بالأعمدة فى طولها وصلابتها؛ لأنهم كانوا ذوى قدود طوال.

﴿ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ٨ ﴾

أى مثلها فى القوة وامتداد القامة، كانوا يقولون: ﴿هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾
فصلت ١٥ و«آل» فى البلاد للعهد أى البلاد المعهودة لديهم وكانت فى زمانهم لا فى
زماننا. ثم عطف سبحانه عادا الأخرى وهى ثمود على قبيلة عاد الأولى.

﴿وَتُمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (١٥)﴾

جاءوا الصخر: قطعوه. كانوا ينحتون الجبال ويجعلونها بيوتا يسكنون فيها.
والمراد بثمود القبيلة، فعبر بالخاص وأراد العام مجازا.

وأصل «الواد» الوادى فحذفت الياء؛ اكتفاء بالكسرة مراعاة للفاصلة. وهو
وادى القرى بالقرب من المدينة المنورة من جهة الشام.

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٦)﴾

الأوتاد صفة لجند فرعون، وحذف لأنه مفهوم من السياق، أى الذين كانت
لهم خيام كثيرة يشدونها بالأوتاد.

أو جعل من جنود فرعون أوتادا على سبيل التجريد؛ لأنهم يشدون ملكه، كما
تشد الأوتاد الخيمة.

وفرعون لقب أفرده الله تعالى بالذكر، لانفراده بالتكبر والتعظم حتى ادّعى
الربوبية.

﴿الَّذِينَ طَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٧)﴾

عبر بالاسم الموصول ليشمل قوم عاد وثمود وفرعون، أى طفت كل طائفة
فى بلادهم، وتمردت وعتت عن أمر ربها.

وعبر بالطفغيان وهو تجاوز الحد، عن العتو والتكبر على سبيل الاستعارة، لما
فى كل منهما من الاستعلاء المضط.

﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ (١٨)﴾

أى ذم الذين طفروا فى البلاد؛ لأنهم أكثروا من الفساد فى بلادهم فقدم
المسبب وآخر السبب.

﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ (١٢)

أى أفرغ عليهم ما عذبهم به، وألقى عليهم العذاب فى صورة الصب المنهمر على ظهورهم وأجسادهم، وفى التعبير «يصب» أبلغ من الإلقاء، لما فيه من الكثرة والشدة والتتابع.

ونسب الصب للسوط، مع أنه لا يسند إليه حقيقة؛ حيث أراد تشبيهه ما ينزل عليهم من أثر السوط المتتابع بقطرات الشيء المصبوب.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبَاسِرٌ صَادٍ﴾ (١٣)

فى هذه الآية إشارة إلى أن الكفار فى عهد رسول الله ﷺ سيصيبهم مثل ما أصاب قوم عاد وثمود وفرعون، ففيها تهديد ووعد لكفار مكة، وأكد هذا الوعد بـ (إن) واسمية الجملة واللام الداخلة على الخبر. «المرصاد» المكان الذى يتربص فيه الراصدون.

فهذا مجرد تمثيل لإرصاده تعالى بالعصاة وأنهم لا يفلتون من عقابه.

﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ (١٤) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٥﴾

ابتلاه : امتحنه واختبره بالنعم، فأكرمه بالمال ووسّع عليه بالرزق، فيفرح بما نال من عطاء دون أن يخطر بباله أن ذلك امتحان له واختبار من ربه.

و«أل» لإهانة الجنس ويدل على العموم. و«ما» زائدة «والفاء» تفسيرية فهى تفسر الابتلاء، فالابتلاء هو الإكرام والنعمة.

قيل إن «أل» هى الإنسان للمعد؛ لأن المراد به: أبى بن خلف الكافر.

وإذا «قدر عليه رزقه» وضيقه ولم يوسع عليه، ولم ييسطه له، فيقول متضرعاً «ربى أهاننى»، وهى صفة الكافر الذى لا يؤمن بالبعث.

وبين الآيتين مقابلة جميلة، حيث قابل بين الإكرام والنعمة وبين تقتير الرزق والإهانة، مما أعطى الكلام تنغيماً ومماثلة فى التباين بين نوعين من الإنسان: نوع

يعترف بنعم الله ويشكره عليها، ونوع آخر يجحد نعم الله عليه إذا اختبر ولا يصبر على هذا الاختبار. ويظن أن ربه تركه ذليلاً مهاناً دون أن يعرف أن ربه ناظر إليه بنظر الرحمة والشفقة. وحذفت النون في أكرمني وأهانني للتخفيف.

﴿كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ﴾ (١٧)

كلا أداة ردع للإنسان الذى أكرمه ربه فلما منه أن هذا الإكرام لاستحقاقه له، ودرع للإنسان الذى قتر عليه ربه فى الرزق ليختبره هل يصبر أم يجزع؟ والله لم ييسط الرزق لكرامة الإنسان عنده، ولم يقره لإهانته بل اختباراً وامتحاناً لكلا النوعين من الإنسان.

فالتفت فى الآية من الغيبة إلى الخطاب لقصد التقرع والتوبيخ. والالتفات يتأوله ابن جنى ولا ينظر إليه تلك النظرة السطحية التى سار عليها البلاغيون السابقون لعهد، حيث قالوا إن سبب الالتفات هو العمل على تجديد نشاط السامع دون أن يكشفوا عن الوجه البلاغى للعدول عن أسلوب إلى أسلوب آخر^(١).

﴿وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ (١٨)

أى لا تحضون أنفسكم، فحذف المفعول به، لضيق المقام وللعلم به كما حذف التاء من الفعل تخفيفاً، أى تتحاضون، ولا يحض بعضكم بعضاً على بذل طعام المسكين، فحذف المضاف أيضاً، فحذف الحرف، وحذف المفعول به، وحذف المضاف، اختصاراً لضيق المقام وفهمه من سياق الآية.

﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا﴾ (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ (٢٠)

المراد بالتراث: أموال اليتامى التى يرثونها من أقربائهم، وكذلك أموال النساء؛ فقد كانوا لا يرثون النساء والصبيان.

«وأكلا لماً أكلا شديداً، لا يتركون منه شيئاً لأصحابه من اليتامى والنساء. ياكلونه برمته، وأصل اللّم فى كلام العرب: الجمع ومنه قولهم: لمّ الله شعته، أى جمع ما تفرّق من أموره.

(١) المحتسب - ابن جنى - ١ / ١٤١.

«وتحبون المال حبا جما» حبا كثيرا مع حرص وشره، وفي ذلك نهاية لذتهم حيث قصدوا الدنيا دوماً، وأهملوا أمر الآخرة تماماً.

وأكل التراث «ليس أسلوباً حقيقياً؛ لأن المال لا يؤكل بذاته، وإنما ما يشتري به من طعام وشراب، وأكد الأكل بالمصدر حتى يتوهم السامع أنه أكل حقيقى، وينسى أن المراد ما يصير إليه التراث من طعام وفاكهة.

وتحبون جنس المال حبا كثيرا أكثر من حبكم لشيء آخر مهما كانت قيمته. فالمال أغلى لديكم من كل شيء.

والآيتان من السجع المتوسط ليس بالطويل ولا بالقصير.

ويدخل تحت نوع يسمى بالتصريع، «لأن جميع ما فى إحدى القرينتين من الألفاظ مثل ما يقابله من الأخرى فى الوزن والتقفية»^(١)

﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ (٣٦)

أوعدهم الله وأنذرهم، بعد أن ردعهم وزجرهم. أى دق أعناقهم وكسر ظهورهم، وزلزلت الأرض من تحت أقدامهم، فدكت الأرض مرة تلو المرة. وفى الآية تأكيدان: «دكاً» الأولى مصدر لدكت الأرض، و«دكاً» الثانية تأكيد للأولى.

والتأكيد جاء لتعظيم أمر الدك.

أى أن الأرض دُكَّتْ دَكًّا متتابعاً، وضرب بعضها ببعض حتى تفتت كل ما على وجهها من جبال وأبنية وصارت هباء منبثاً.

﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ (٣٧)

أى جاء أمره وظهرت آيات قدرته وآثار قهره، والرب لا يجئ حقيقةً لجلاله، ومخالفته للحوادث، أى جاء أمر الله والملك تحفه صفوفاً صفوفاً لا نهاية لها، دائمة لا تنقطع.

(١) الإيضاح - للخطيب القزوينى من ٤٤٢ ت د/ عيد القادر حسين، طه الآداب.

فجاء ريك معناها جاء أمر ريك، فحذف المضاف تخفيفاً يقول سيبويه كما
 فى قوله تعالى: «واسأل القرية»، وإنما يريد أهل القرية، ويطوهم الطريق، تريد
 يطوهم أهل الطريق، وهذا فى كلام العرب كثير (٢١) والحذف فيه للتخفيف.

﴿ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (٢٢) ﴾

أى يوم يعرضون على جهنم، يتذكرون ما فرطوا فيه، نادمين على تضريطهم
 وتقديمهم الكفر والمعاصى، فهل يتعظون؟ وأنى لهم الذكرى، فمن أين لهم التذكر
 والاتعاظ، وكيف يتوبون ولا توبة لهم لفوت الوقت؟

﴿ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (٢٣) ﴾

جاءت هذه الآية غير مرتبطة بما قبلها، ولم يذكر معها حرف عطف، فهى
 مستأنفة؛ لأن هذه الجملة جاءت جواباً لسؤال مقدر كأنه قيل: ماذا يقول
 الإنسان؟ وهو ما يسمى بشبه كمال الاتصال عند البلاغيين.

وانظر إلى دخول «يا» التى تقيد نداء البعيد، على «ليت» التى تقيد التمنى
 «ياليتنى» فهو إذن يستبعد تحقيق تمنيه، فالتمنى بعيد فى حد ذاته، وزاده
 استبعادا دخول «يا» التى تقيد البعد أيضاً. حتى صار تمنيه مستحيلاً بعيد المنال،
 ولن يتحقق أبداً.

كيف يتمنى أن يقدم الخير ويصنع المعروف بعد فوات الأوان.

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (٢٤) وَلَا يُوثِقُ وِثْقَهُ أَحَدٌ (٢٥) ﴾

أى لا يُعَذِّبُ كعذاب الله أحد، ولا يوثق كوثاقه أحد، بمعنى ألا يتولى عذاب
 الله ووثاقه أحد سواه؛ إذ الأمر كله لله وحده.

ففيه معنى القصر، حيث أثبت العذاب والوثاق لذاته تعالى دون غيره من
 الملائكة، مبالغة فى كنه العذاب وشدته.

وهو أيضاً فيه معنى التشبيه الذى حذف منه «الأداة».

(١) الكتاب - سيبويه ٢ / ٢٥.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠) ﴾

«استعمل «يا» لنداء البعيد مع أن النفس قريبة من الله، فهي أقرب إليه من جبل الوريد، لرفعة منزلتها عند الله سبحانه، فتزل بعد المكان منزلة بعد المكانة.

وصف النفس بالاطمئنان، وهي السكينة النابعة من الإيمان والتوحيد، سعيدة لبعدها عن القلق والتوتر، والمراد بها كل نفس مطمئنة على العموم.

ارجعي إلى رحمة ربك متلذذة بالثواب، مرضية عنده لما حباك به من الجزاء الأوفى.

وادخلي في زمرة عبادي الصالحين، وانتظمي في سلوكهم، وادخلي جنتي يوم القيامة.

ادخلي في زمرة الخواص وهي السعادة الروحية، وادخلي في جنتي وهي السعادة الجسمانية.

* * *

سورة البلد مكية

(عدد الآيات ٢٠ آية، نزلت بعد ق)

﴿ لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝ ﴾

﴿ لا ﴾ زائدة ، والمعنى : أقسم بهذا البلد ، وهو إجماع المفسرين ، كقول العرب فى قوله تعالى : ﴿ مَا مَعَكَ إِلَّا تَسْجُد ﴾ الاعراف : ٢ يعنى أن تسجد . أو هى رد على كلام سابق محذوف عن البيهق حين أنكره ، وكأنه قال : ليس الأمر كما ذكرتم ، أقسم بهذا البلد ، فذكر ﴿ لا ﴾ هنا أقاد معنى جمعتين : إحداهما منفية والأخرى مثبتة .

وقد تحذف ﴿ لا ﴾ وهى مرادة كقوله تعالى ﴿ نَالِسْهُ تَقَاتُ تَذَكُّرُ يُوسُفَ ﴾ يوسف ٨٥ . والمعنى : تالاه لا تقا تذكرو يوسف ، فكما تحذف ﴿ لا ﴾ وهى مرادة فى الكلام ، فكذلك تزداد فى الكلام وهى غير مرادة كما فى لا أقسم ، وحذفت اللام لضيق المقام عن ذكرها .

﴿ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ أشار إلى البلد - وهو البلد الحرام ، والمراد به مكة . والإشارة هنا لها مغزاها البلاغى ، أى القريب لى ، وينبغى أن يكون قريبا من قلوبكم وأبصاركم ، ملتصق بكم ، فإذا غاب عن أبصاركم ، لا يغيب عن قلوبكم « قال » فى البلد ، للعهد ، أى البلد الحرام ، الأمين كما ورد فى سورة التين حيث قال : ﴿ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾ .

أقسم بالبلد الحرام ، لفضله عن سائر البلدان حيث جعله حرم إبراهيم ، ومستقط رأس رسول الله ﷺ ووجه الحجيج إليه إلى غير ذلك من مآثره .

﴿ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ خطاب لرسول الله ﷺ ، أى والحال أنك حال فى مكة نازل بها ، فزاد البلد فضلا بعد أن كانت فاضلة بنفسها ، وزادت تشريفا بحلول النبى ﷺ بها .

وفى ذلك تعريض بكفار مكة حيث قرروا إخراج رسول الله منها لجهلهم
بقدره ومكانته حين دعاهم إلى الإيمان .
ووعد لرسوله أن يحل فيها بعد أن هاجر منها ، إلى المدينة ، أن ينزل إليها
فاتحاً فى المستقبل ، كقوله تعالى : « إنك ميت وإنهم ميتون » .
أى ستموت وسيموتون . فمعنى وأنت حلّ ، أى ستحل ، فهى مجاز مرسل
باعتبار ما سيكون .

﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴾ (٢٧)

نكر « والد » لتعظيمه وتعظيمه ، والمراد به إبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء
﴿ وَمَا وَلَدَ ﴾ هو إسماعيل عليه السلام .
وآثر استعمال « ما » بدلا من « من » تعجيلاً وتعظيماً مما أعطى الله أنبياءه
من الكمال .

أو أن المراد بالوالد آدم عليه السلام ، وبما ولد ذريته وما تناسل من ذريته ،
أقسم بهم لأنهم أعجب ما خلق الله على وجه الأرض ؛ لما فيهم من البيان والعقل
والتدبير ، ولما فيهم من الأنبياء والعلماء والصالحين .

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ (٢٨)

اللام وقد أداتان لتأكيد ما جاء بعدهما .
وأسند الخلق إليه سبحانه ، تعظيماً لهم ورضعة لشأنهم .
« وآل » هى الإنسان لإفادة الجنس أى جنس الإنسان وأفراده .

﴿ فِي كَبَدٍ ﴾ (هى) تفيد الظرفية، ولكنها جاءت هنا للاستعارة ؛ لأن
﴿ الكَبَدَ ﴾ أى المشقة والتعب ليس ظرفاً حتى تدخل عليه ﴿ في ﴾ فاستعمالها فى
الآية على سبيل المجاز أو الاستعارة التبعية ، ونكر ﴿ كَبَدٍ ﴾ لتعظيمه وشدته،
وهذه الآية جاءت مؤكدة جواباً للقسمة فى أول السورة .

وقد خلق الإنسان فى كبد لكثرة معاناته ومكابدته من قطع سرته حين
الولادة ، إلى مكابدة الختان، ثم الكبر والهرم . والمقاساة من شدة المَرْتِ وسؤال القبر
وظلمته، ثم البعث والعرض، واستقراره فى الجنة أو فى النار .

﴿ أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدَرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾ (٢٩)

أيظن ابن آدم أن لن يقدر عليه أحد مهما كان قويا ، ولا ينتقم منه أحد مهما كان عظيما ، فتتكبر ﴿ أَحَدٌ ﴾ يفيد التعظيم .

﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا ٥ ﴾

أنفقت مالا كثيرا مجتمعا بعضه على بعض ، مال لا يخشى فناؤه من كثرته .
فتتكبر ﴿ مَالًا ﴾ ليفيد كثرته وغزارته حتى أنه وصفه بما يؤكد ذلك . ﴿ لُبَدٌ ﴾ على وزن « فَعْل » وهى صيغة تقيد الكثرة كما تقول : رجل حَطَمَ ، إذا كان كثير الحطَم .

واستعمار الإهلاك فى ﴿ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا ﴾ للإنتفاق : إشارة إلى أنه ضائع فى الحقيقة إذ لا ينتفع به صاحبه فى الآخرة .

﴿ أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ٧ ﴾

أيظن ألا يسأله أحد عن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ؟
فأله يراه ويطلع على خبث نواياه وفساد سريرته ، ويعرف إذا كان قد أنفق ماله مباحةً وتفاخراً فيجاز به عليه بمقوبته .

ونكر « أحد » هنا لإفادة العموم ، أى لم يطلع عليه أحد صغيرا أم كبيرا عظيما أم حقيرا ، فيشمل كل أحد .

﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ٩ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ١٠ ﴾

ذكر الله سبحانه ما أنعم به على عبده من البصر والكلام .
والاستفهام يفيد التقرير والتأكيد ، أى أنه جعل له ﴿ عَيْنَيْنِ ﴾ يبصر بهما ، ﴿ وَلِسَانًا ﴾ ينطق به ، ﴿ وَشَفَتَيْنِ ﴾ يستر بهما ثغره . ألم تفعل به ما يدل على أن الله قادر على أن يبعثه .

﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ النجد : المكان المرتفع ، والمراد هديناه وعرفناه طريق الخير وطريق الشر ، وجعلناهما ظاهرين كظهور الطريق المرتفع الذى لا يخفى على الناظر ، فالتشبيه ضمنى ، ولكن طريق الخير مرتفع ، وطريق الشر منخفض ، والتجدين عبر بهما على سبيل التغليب .

أو هديناه إلى الشدين وهو طفل رضيع لا يدرك شيئا ، فهديناه إلى طريقي

التديين ، لأنهما طريقان مرتفعان ينزل منهما اللبن فيمصه الطفل ويتقوّت به وبذلك يكون أسلويًا كئاشيا حيث عبر باللازم وهو النجدان وأراد الملزوم وهو التديان .

﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) ﴾

العقبة هي الأصل : الطريق في الجبل ، وسميت بذلك لصعوبة سلوكها . وفي العقبة مجاهدة للنفس والهوى ، والاقتحام : الدخول في أمر شديد دون روية . فهلا تقيد التحضيض والحث على الاقتحام ، وما فيه من صعوبة ، فأى شيء أعلمك ما اقتحامها ؟

﴿ فَكَ رَقَبَةً (١٣) ﴾

هي إعتاق رقبة وتخليصها من أسر الرق . والمراد بالرقبة ، النفس البشرية ، وعبر بالرقبة حيث عبر بالجزء وأراد الكل مجازًا . فالعقبة هي نفسها « فك الرقبة » ، وفك الرقبة تفسير لها وبيان، فجاءت بدون واو .

﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَةٍ (١٤) ﴾

وصف اليوم بأنه ذو مسغبة ، والمسغبة : الجوع ، وهذا الوصف يشير إلى أنه مجاز عقلي : لأن اليوم لا يوصف بالجوع وإنما يجوع أهله فيه . وقيد الإطعام بيوم المجاعة : لأن إخراج المال والطعام في ذلك اليوم أثقل على النفس فيكون أوجب للأجر . وفضل الإطعام أن يكون لدى قرابة يتيم، حتى تجتمع فيه صفتا الاستحقاق، صفة اليتيم ، وهي الضعف ، وصفة القرابة ، فيجمع بين صلتى الرحم والصدقة .

﴿ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ﴾

فإطعام الأوج أفضل ، وثوابه أعم . واليتيم هو الذي لا أب له ، أو هو الضعيف . والمسكين ذو المترية ، أي الذي لا شيء له كأنه التصق بالتراب وليس له مأوى إلا التراب .

فالتكثير في « يتيمًا » ، وفي « مسكينًا » يفيد الضعف وطلب الشفقة .
والوصف بأن اليتيم ذو قرابة ، والمسكين بأنه ملتصق بالتراب ، يفيد استمطار
الرحمة والشفقة لكل منهما .

﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَةِ ۝١٧٧ ﴾

استعمل « ثم » التي تفيد التراخي ، نزل بعد مكانة المؤمنين عند الله منزلة
البعيد المكاني ؛ لأنهم أتوا بهذه الصفات من فك الرقاب وإطعام اليتامى والمساكين
قرية لوجه الله وليس لغرض من الأغراض الدنيوية ؛ فهم قد تَوَاصَوْا بِالْمَرْحَةِ على
عباد الله واستكثروا من الخير ، وفي ذلك تكميل بعد كمال الإيمان ، وزاد الإيمان
كمالاً بتواصيهم بالصبر والمرحمة .

﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمِيمَةِ ۝١٧٨ ﴾

أصحاب اليمين الذين يُعْطُونَ كَتَبَهُمْ بِأَيْمَانِهِمْ ، وعبر بأولئك ، التي تفيد
الإشارة للبعيد ، لبعيد منزلتهم عند الله سبحانه .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۝١٧٩ ﴾

وصفهم بالكفر ، ووصفهم بأنهم أصحاب الشؤم ، وعبر بضمير الغائب «هم»
للدلالة على سقوط منزلتهم وبعدهم عن حضرة الله سبحانه ، فهم أحق بالإخفاء ،
﴿ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أى بالقرآن فعبر بالجزء وأراد الكل مجازاً .

﴿ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ ۝١٨٠ ﴾

أى علقهم النار ، وتمكنت من تعذيبهم ، وقد أهدأت ذلك لفظة ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ ،
ووصف النار بأنها ﴿ مُّؤَصَّدَةٌ ﴾ أى مطبقة مغلقة عليهم لا يستطيعون منها فراراً أو
هروباً ، فيشتد عذابهم وجوارهم .

وقدم الخبر « عَلَيْهِمْ » على المبتدأ « نَارٌ » ليفيد كما قال صاحب الأكسير
في علم التفسير^(١) اختصاص المجرور دون غيره بإسناد ما بعده من معنى
الكلام إليه .

أى أن النار مختصة بالذين كفروا بالقرآن ، هذه النار التي أوصدت عليهم
دون غيرهم من العصاة .

(١) ص ١٦٢ ط دار الأوزاعي : تأليف الطوفي البغدادي ت ١٠٢٠ / عبد القادر حسين .

سورة الشمس مكية

(عدد الآيات ١٥ آية، نزلت بعد القدر)

﴿ وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا (١) ﴾

أقسم سبحانه بالشمس إذا طلعت، والشمس نجم مضئ. يتلألأ نهاراً، والمراد بالضحي: النهار كله، ويستعمل الضحي حقيقة عند ارتفاع الشمس قبل الظهر، فالضحى مجاز علاقته الجزئية، حيث عبر بها وأراد طول النهار.

﴿ وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَاهَا (٢) ﴾

والقمر نجم يتبع الشمس ويستمد نوره منها، ويطلع إذا غربت الشمس، فأقسم بالقمر باعتبار أنه تابع وتال للشمس.

﴿ وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّاهَا (٣) ﴾

أي جلى الشمس، فالشمس تنجلي تمام الانجلاء عند انبساط النهار فتتمحي الظلمة تماماً، ويظهر كل ما على سطح الأرض من مخلوقات بعد أن كانت مستترة بالليل.

نسب القرآن التجلى إلى النهار، لا إلى الشمس، باعتبار وجود التجلى في زمن النهار، فالآية مجاز عقلى علاقته الزمانية.

﴿ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) ﴾

أي يخفى الليل الشمس فيذهب بضوئها فتغيب وتظلم الآفاق. فأسند التغطية إلى الليل، ولكنها واقعة في زمن الليل، فهي من المجاز بعلاقة الزمانية كالآية السابقة.

وعبر في هذه الآية بالفعل المضارع، يغشاهما وفي الآيتين السابقتين بالفعل

الماضى تلاها وجلاها مع أن السياق واحد، للدلالة على أن الزمان كله واحد بالنسبة لله تعالى حاضرا كان أو ماضيا، لا يخرج عن قدرته شيء من هذا أو ذلك.

﴿وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا (٥)﴾

عبر «بما» دون «من» لأنه أراد الوصف والتعجب منه؛ لأنه بناها على غاية العظم والفخامة، فكانه قال: الذى بناها هو القادر العظيم الشأن.

﴿وَالْأَرْضَ وَمَا طَحَاها (٦)﴾

الطحو: البسط، فمعنى طحاهما: بسطها، فبسط الأرض من كل جانب على الماء كى يعيش الناس فيها.

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧)﴾

نكر النفس لتعظيمها، سواء أراد بالنفس آدم عليه السلام، أو أراد بها كل نفس مخلوقة، فهي تستدعى التقدير والتعظيم.

ومعنى سواها: أنشأها وأبدعها وسوى أعضائها.

﴿فَالْتَمِهْهَا فَجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨)﴾

عرفها طريق الفجور والتقوى، والمعصية والطاعة، أى ألهمها سبيل التوفيق والخذلان.

ومطابق بين الفجور والتقوى باعتبار التضاد بينهما، لما فى ذلك من دلالة على قدرة الله العظيم الشاملة، أى أن الله ألهم النفس البشرية كل شيء؛ لأن الشيء، كل شيء، لا يخرج عن كونه داخلا إما فى الفجور أو فى التقوى.

أقسم سبحانه أولا بالشمس؛ لأنها أعظم المحسوسات شرفا ونقعا.

ثم وصفها بأوصافها وهى ضوءها، وكونها متبوعة للقمر، ومتجلية عند ارتفاع النهار، ومختفية بالليل.

ثم أقسم بالسماء فهى أعظم من الشمس، وهى مسار لها. وفى ذلك تنبيه لعظمة كليهما. الشمس والسماء.

والقسم بالشيء تعظيم له وعلو شأنه.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩)﴾ ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠)﴾

الآية جواب القسم بالشمس والسماء، والجملة فعلية ماضوية مؤكدة بقدر «قد أفلح» وحذفت لام القسم لطول الكلام قبل ذكر جواب الشرط، فصار طول الكلام عوضا عن ذكر اللام. وتركبة النفس بإنمائها وإعلاء شأنها بالتقوى. وخاب من دسها، أى ضل وخسر من أخفاها ولم يشهرها بالطاعة والعمل الصالح.

يقول أهل اللغة: الدس: إخفاء الشيء فى الشيء، وتركبة النفس: طهرها وصلاحتها.

وبين الآيتين مقابلة، حيث أتى بمعنيين متوافقين، ثم بما يقابل ذلك على الترتيب: أفلح ضد خاب، وزكاهها: ضد دسها، فقابل الثانية بالأولى؛ وهذا يختص باسم المقابلة. (١)

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١)﴾

أى كذبت بالعذاب الذى وعدت به، والطغيان سبب فى العذاب، وجاء على سبيل المجاز المرسل علاقته السببية، والطغيان: مجاوزة الحد فى المعاصى. وعبر ثمود - الجد الأكبر - وأراد القبيلة مجازا باعتبار الخصوص.

أو كذبت ثمود نبيها صالحا، فحذف المفعول به؛ لأن الفرض أن ينسب التكذيب لهم، ويسلم الفعل عليهم من غير إرادة تسلطه على المفعول به، فكان الفعل المتعدى كغير المتعدى (٢)

﴿إِذِ اتَّبَعْتُ أَشْقَاهَا (١٢)﴾

أى انتدب لذلك وقام بعقر الناقة، ولم يذكر اسمه تحقيرا لشأنه. وهو أشقى ثمود: قدار بن سالف.

(١) التعبير فى علم التفسير - السيوطى ص ٢٨٨.

(٢) الدلائل - عبد القاهر الجرجاني، ١٥٤ ط، شاكر.

﴿ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةُ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴾ (١٦)

رسول الله كناية عن صالح عليه السلام.

وناقة الله، منصوبة على الحذف اختصاراً، أى احذروا ناقة الله. وأضاف كلمة رسول إلى الله تشريفاً لرسوله.

ومعنى سقياها: أى خلّوا بين الناقة وشرّبيها فى يومها المعلوم، ولكنهم لم ينفذوا اتفاقهم فهُمُوا بِقَتْلِهَا.

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمُ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴾ (١٧)

كرر التكذيب لتأكيد كذبهم، حيث قال: كذبت ثمود، ثم قال: فكذبوه فعقروها. والذي عقرها - أى نحرها - واحد منهم فحسب، ولكن أسند العقر مجازاً إلى الجميع: لأنهم رضوا به.

وحقيقة الدمدم: مضاعفة العذاب، أى هلاك باستئصال، وسوى الأرض: دهنتهم تحت التراب، دون أن يقتل منهم أحد.

وتكرار الدال فى قوله «فدمدم» مبالغة فى الإحاطة بهم وتعذيبهم وهلاكهم.

﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾ (١٨)

فعندما عقر قدار بن سالف الذى وصفه الله بأشقى ثمود لم يخش صنيعه، ولم يخف عاقبة فعلته الخسيسة بعقره للناقة.

والسورة كلها تتميز بالسجع، وتجرى على وتيرة واحدة، فكل آية فى السورة تختتم بهاء ممدودة، مما يجعل للسورة مذاقاً عذياً وموسيقية رائعة رغم ما فيها من خسران وهلاك ودمدمة حيث أهلكوا بالصيحة، وباءوا بالدفن تحت التراب.

* * *

سورة الليل مكية

(عدد الآيات ٢١ آية، نزلت بعد الأعلى)

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ۚ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (٣) ﴾

إِنْ سَعَيْكُمْ لَتَشْتَنَّ (٤) ﴾

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ﴾ يغشى الليل الأفق وجميع ما بين السماء والأرض فيذهب ضوء النهار .

﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴾ أى ظهر وانكشف ، بطلوع الشمس فيذهب ظلام الليل ويحل نور النهار .

وبين الآية الأولى والثانية مقابلة ، قابل شيئين بشيئين .

وحذف المفعول فى الآية الأولى ، أى الليل يغشى الشمس أو يخفى النهار .

فعدم ذكر المفعول للعلم به - أو لإفادة التعميم ، أى يغشى كل ما فى الكون من ضوء .

ونلاحظ أن الفعل فى الآية الأولى كان مضارعاً ، وفى الآية الثانية أتى ماضياً ، فاختلفت الفاصلتان بالمضى والمستقبل ؛ للدلالة على أنه تعالى لا يجرى عليه زمان ، فالمستقبل عنده كالماضى سواء بسواء .

﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (٥) ﴾

أى والذى خلق الذكر والأنثى .

عبر « بما » بدلا من « مَنْ » لقصد التفخيم ، أى أنه القادر العظيم الذى خلق صنفى الذكر والأنثى ، فكانه أقسم بنفسه تعالى . أو أنه خلق آدم وحواء ، ولكن الظاهر العموم حتى يشمل كل ذكر وكل أنثى ، فإذا كان المراد آدم وحواء فاللام للعهد ، وإن كان المراد العموم فاللام للجنس .

وبين الذكر والأنثى طباق ، وفائدته الشمول ؛ لأن الخلق كله لا يخرج عن كونه إما ذكرا وإما أنثى .

﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ③ ﴾

بعد أن أقسم بالليل والنهار ، وخلق له الذكر والأنثى ، جاء بجواب القسم : ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴾ شتى : جمع شتيت ، كمرضى ومريض ، أى عملكم مختلف ، فمنه عمل للجنة ومنه عمل يُدخل النار ، وأكد جواب القسم بأن واللام ، ليفيد حتمية اختلاف أعمال الناس حسب أهوائهم وأحوالهم . وفضل أعمال الناس واختلاف مشاربهم وما يقدمونه لأنفسهم فقال :

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ⑤ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ⑥ فَسَنِيَرَهُ لِلْإِسْرَى ⑦ ﴾

أى بذل ماله فى وجوه الخير ، واتقى محارم الله ، وصدق بكلمة التوحيد وبالبعث والجنة ، فسيسر له الإنفاق فى سبيل الله والعمل بطاعته ، ونهيته ونوقفه للخصال التى تؤدى إلى يسر وراحة ، كدخول الجنة ، ورضوان الله .

نزلت هذه الآيات فى سيدنا أبى بكر الصديق ؛ لأنه اشترى ستة نفر من المؤمنين كانوا فى يد أبى جهل والوليد بن المغيرة ، ومن هؤلاء الذين افتادهم أبو بكر رضى الله عنه - بلال بن رباح مؤذن رسول الله ﷺ ، وكان المشركون يؤذون هؤلاء المؤمنين حتى يرددوا عن الإسلام ، فاشتراهم أبو بكر واعتقهم . هذه هى أوصاف المؤمنين ، العطاء ، والاتقاء ، والتصديق بالغيبيات فجزاؤهم التيسير لعمل الخيرات .

وهى مقابل ذلك أتى بأوصاف الكافرين :

﴿ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ⑧ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ⑨ فَسَنِيَرَهُ لِلْعُسْرَى ⑩ ﴾

أى بخل بماله فلم يبذله فى سبيل الخير ، فحذف ما يتعلق بالفعل للعلم به واختصارا للحديث ، واستغنى عن الأجر والثواب ، ويشهوات الدنيا عن نعيم الآخرة ، فحذف المتعلق لعمومه ، وحتى تذهب فيه النفس كل مذهب ، من يفعل ذلك نهيته للخصال العسيرة ، فتبدو له سهلة فيقع فى إثمها ، فيؤديه ذلك إلى النار ، بعد أن جرى الشر على يديه .

يقول الفخر الرازى : لما جعل التيسير مشتركا بين الإعطاء والاتقاء والتصديق ، جعل ضده وهو التعسير مشتركا بين أضداد هذه الأمور وهو المنع

والاستغناء والتكذيب (١) .

ويقول السيوطي في كتابه « التحرير في علم التفسير : إن ذلك يختص باسم
المقابلة وهو أن يؤتى بمعنىين متوافقين أو أكثر ، ثم بما يقابل ذلك على الترتيب (٢)
ويذكر هذه الآيات من سورة الليل .

﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى (١١) ﴾

أى لا يغنى عنه ماله شيئاً ، ماله الذى بخل به ، ومنع إنفاقه فى سبيل الخير ،
فالجملـة خبرية .

أو أى شىء يغنى عنه إذا تردى ؟ ، فما استفهامية ، فتكون الجملة إنشائية ،
قصد بها مجرد الاستفهام . والاستفهام بمعنى الإنكار .

و ﴿ إِذَا تَرَدَّى ﴾ أى هلك : لأن من يسقط فى هوة سحيقة لا ينتظر سوى
الهلاك ، فهو يهوى فى جهنم ، وليس له مفر من ذلك .

وتشديد الفعل ﴿ تَرَدَّى ﴾ يوحى بالعنف والشدة التى تنتظره حين يبخل
بماله ويضن بإنفاقه .

وحذف المفعول به فى الآية ﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ ﴾ أى ما يغنى عنه شيئاً ،
يقول عبد القاهر الجرجاني عن قيمة الحذف وبلاغته :

هو باب دقيق المسلك ، لطيف المآخذ ، عجيب الأمر ، شبيه بالسعر ، فإنك
ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة ، أزيد للإفادة (٣) .

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (١٢) ﴾

إن الله يبغى الهداية للبشر ، ولكن بعضهم لا يريد سوى الضلال ويسعى
إليه ، فكانت هذه الآية مقررـة ومؤكدة لما قبلها .

وتقديم الخبر ﴿ عَلَيْنَا ﴾ يفيد القصر ، أى علينا الهدى وليست على غيرنا .

﴿ وَإِنْ لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى (١٣) ﴾

أيضاً تفيد القصر والاختصاص أى لنا لا لغيرنا .

(١) نهاية الإيجاز ص ٢٨٦ .

(٢) نهاية الإيجاز ص ٢٢٨ ، ٢ - الدلائل ص ١٦٦ .

والآخرة والأولى كناية عن الدار الآخرة ، وكناية عن الدنيا الفاتية .
فلنا كل ما فيهما نتصرف فيه كيف نشاء . وأكد هذا المعنى بإن واللام
وتقديم الخبر .

﴿ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ﴾ (١١)

الإنذار : التخويف ، فقد خوفتكم بآلآءهم القرآن ، وأنذرتكم بنار تتوهج
وتتوقد .

وأصل ﴿ تَلَظَّى ﴾ تتلظى ، فحذف التاء تخفيفاً لوقع الكلمة على اللسان .
ونكر ﴿ نَارًا ﴾ لتعظيمها وبيان أهوالها .

﴿ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴾ (١٢)

لا يكتوى بنارها ولا يلازمها لزوماً أبدياً إلا الأشقى الكافر ، ومن يصلها
ويتقد بنارها من العصاة ليس كصلى الكافر ، فاصطلاؤه مؤقت غير دائم ولا
مستمر .

فالآية فيها قصر وأداته النفي والاستثناء ، أى لا يصلها سواه ، ومن عداه
من العصاة كأنه لم يصلها بالنسبة للأشقى الكافر الملائم لها .
وعبر بأفعل التفضيل ﴿ الْأَشْقَى ﴾ دون الشقى ؛ لأنه بالغ فى شقوته وتمرده
وعصيانته حتى فاق فى أفعاله وكفره كل شقى عاصٍ ، ولذا وصفه بقوله :

﴿ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ (١٣)

أى كذب بالحق وأعرض عن الطاعة ، كذب بالقرآن والرسول ، والدعوة إلى
الإسلام ، وأعرض بقلبه عن الإيمان ، وبوجهه عن رسول الله ، فالمتعلق محذوف
مفهوم من السياق ، يفيد العموم والشمول .

يقول الزمخشري فى الكشاف : الآية وأردت فى الموازنة بين حالتي عظيم من
المشركين وعظيم من المؤمنين ... فقيل الأشقى ، وجعله مختصاً بالصلى كأن النار
لم تخلق إلا له . وقيل الأتقى فى ﴿ وَسَيَجْزِيهَا الْآتَى ﴾ (١٧) وجعل مختصاً بالنجاة
كأن الجنة لم تخلق إلا له ، والمراد بالأشقى : « أبو جهل » وبالاتقى : « أبو بكر
الصديق » .

ووصف الأتقى بأنه ﴿ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴾ (١٨) .

أى ينفق ماله فى الخيرات ويكون عند الله زكياً ، لا يطلب رياء ولا سمعة ، ينفقه خالصا لوجه الله ، ابتغاء لرضا ربه ، ولا يتصدق بماله ، لأن لبعض الناس فضلا عليه يريد أن يجازيه ويكافئه عنه .

﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ﴾ (١٩)

ونكر « أحد » ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ ﴾ أى أحد ليفيد معنى العموم ، ونكر أيضا ﴿ مِنْ نِعْمَةٍ ﴾

نعمته ليفيد التقليل، حتى ولو كانت نعمة ضئيلة يريد أن يكافئه عنها .

﴿ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴾ (٢٠)

الاستثناء منقطع ؛ لأن ابتغاء وجه ربه نعمة غير النعمة التى تجزى ، أى

فعل ذلك ابتغاء وجه ربه الأعلى .

﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ (٢١)

أى : وتالله سوف يرضى بما نعطيه من الكرامة والجزاء العظيم ، فاللام

موطئة للقسم ، وأن رضى الرسول عهد وميثاق على الله أن يكفله له ويحققه

لمحبته ووعده له، والقسم من الإنشاء غير الطلبى، وهو لا يخلو من بلاغة التأكيد .

* * *

سورة الضحى مكية

(عدد الآيات ١١ آية نزلت بعد الفجر)

﴿ وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣)
 وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥) ﴾ .

والضحى أقسم سبحانه وتعالى بالضحى ، والمراد بالضحى : النهار كله على سبيل المجاز .

والمقسم به مضاف مقدر ، أى ورب الضحى .

« والليل إذا سجدى » مطابق بين الليل إذا سجدى والنهار إذا صخب ، فشأن الليل السكون والهدوء ، وشأن النهار الضجة والصخب ، ومعنى سجدى : هدا ، يقال للعين إذا سكن طرفها : ساجية .

« وآل » هى الليل للجنسية ، أى جنس الليل ، وطبعه الذى لا يتغير ولا يتبدل من ليل إلى ليل .

« وسجدى الليل » مجاز علقى علاقته الزمانية ، أى سجدى أهله فى زمن الليل .

وفى الضحى إشارة إلى سرور الدنيا وزهوتها .

وفى الليل علامة على هموم الدنيا وثقلها .

وجواب القسم : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣) ﴾ .

ودَّع بالتشديد مبالغة فى الوداع والترك . ولذا عبر بودَّع بدلا من ودع مخففة ؛

لأن الوداع : إعلام بالفراق .

﴿ وَمَا قَلَى ﴾ القلى : شدة البغض - أى وما بغضك .

والأصل : وما قلاك ، وحذف المفعول به للفاصلة وموافقة رعوس الآيات ،

وهو من أشرف السجع لاعتدال فقراته من ألفاظ قليلة (١) .

(١) لأن الفاصلة تتم بدونه . التبيان ص ١٠٩ ، ٥٠٤ ، لابن الزمكلى .

وسبب نزول السورة أن اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن ثلاثة أشياء : عن قصة أهل الكهف ، وقصة ذى القرنين ، وعن الروح . فأخبرهم عن القصتين : قصة أهل الكهف وقصة ذى القرنين ، وأما عن الروح فقال لهم أرجعوا غدا وسأخبركم . ولم يقل إن شاء الله . فاحتبس الوحي ، فقال المشركون إن محمدا ودَّعه ربه وقلاه ، فنزلت .

﴿ وَلَآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ۝١ ﴾

أى كرامة الآخرة ونعيمها خير من شقاء الدنيا وتعبها .

فالأخرة كناية عن دار الآخرة ، والأولى كناية عن أيام الدنيا ^(١) .

واللام فى الآخرة جواب لقسم محذوف تقديره : وأقسم أن الآخرة خير من الأولى . فالدنيا مشوبة بالأكدار ، والحياة فيها كاحلام نائم ، أو كظل زائل فهى ليست شيئا بالنسبة للآخرة .

« وخير » أفعل تفضيل لإفادة تعظيمها وتشريفها .

وأل فى « الآخرة » وأل فى « الأولى » للعهد أى الآخرة والدنيا المعهودتان لديكم وتعرفون كلا منهما معرفة حقة .

﴿ وَلَسَوْفَ يَعْطِيكَ رَبُّكَ قَرْضَى ۝٢ ﴾

المبتدأ محذوف اختصارا أى ولأنت سوف يعطيك ربك ، واللام للابتداء دخلت على الخبر لتأكيد مضمون الجملة . فلام الابتداء تدخل على الجملة الإسمية ، وليست لام القسم ؛ لأن لام القسم لا تدخل إلا على المضارع المؤكد بنون التوكيد . ﴿ قَرْضَى ﴾ المفعول محذوف ، أى ترضى ما تعطى إياه فيعلمئن به قلبك أو يعطيك الفتح فى الدنيا ، والثواب فى الآخرة ، فترضاه .

وعبر بالمضارع فى يعطيك ، وترضى ، لتجدد العطاء والرضا حالا بعد حال .
والفاء للتعقيب ، أى تعطى الخير فيعقبه رضاك .

يقول عبد القاهر : إن المفعول مقصود ، وقصده معلوم ، وأنه يحذف من

(١) لأن الكناية تترك على أطراف المعانى ظلالات خفيفة يشترك بها الذهن . ويعمل فيها الخيال حتى تبرز وتتلون وتتسع . فيزيد بطريق الإيهام من دلالة الكلام فن البلاغة ص ١١ د / عبد القادر حسين .

اللفظ لدليل الحال عليه ... إلا أنك تخفيه ، وأنت لم تذكر الفعل إلا لتثبيت نفس معناه من غير أن تعرض فيه للمفعول « (١) » .

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (٦) ﴾

شرع القرآن في تعداد ما أفاض الله عليه من نعم ، أي وجدك يتيماً لا أباً لك وآواك وجعل لك ماوى تأوى إليه .

الهمزة للإنكار ، ودخلت على النفي « لم » ففقررت المنفى على أبلغ وجه ، فكانه قال : قد وجدك يتيماً وآوى .

أي علمك يتيماً بلا أبوين ، فوجد بمعنى علم .
ونكر يتيماً : لإظهار ضعفه وهوانه على الناس ، ولكن الله حفظه من كيدهم وشهرهم .

وجعله يتيماً حيث إن الذى ناله من عز وشرف لم يكن بسبب النسب أو ما توارث من مال .

وفى الكشف للزمخشري في قوله ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ﴾ .

« ومن بديع التفسير أنه من قولهم : درة يتيمة ، وأن المعنى : ألم يجدك واحداً في قريش عديم النظير في العز والشرف ، وآواك في دار أعدائك ، فكنت بين القوم معصوماً محروساً » .

﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (٧) ﴾

الضلال : بمعنى الغفلة ، فلم يكن محمد ﷺ يدرى ما القرآن ، وما الشرائع ، فهداه الله إليها ، فكان محمد غافلاً عن كثير من الأمور التي أطلعه الله عليها ، فتكبر « ضالاً » يفيد الكثرة .

وحذف المفعول : أي هداك ، لرعاية الفاصلة ، والتركيز على الفعل دون التعرض للمفعول .

﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (٨) ﴾

وجدك فقيراً لا مال لك فأغناك بما آفأ عليك من الغنائم ، حتى كان ﷺ يهب المائة من الإبل .

(١) الدلائل من ١٥٥ - ١٥٦ .

وهي اللغة : عال الرجل يعيل عيلة : إذا افتقر .

ثم أوصاه بالفقراء فقال :

﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ^(١) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ^(٢) ﴾

لا تحقر اليتيم فقد كنت يتيما ، ولا تزجر السائل عن أمور دينه ، أو دنياه
فقد كنت غافلا عن ذلك . فلا تنهره ولا تغلظ له في القول .

« وأل » في اليتيم وهي السائل تفيد الجنس والاستغراق ، أى لا تقهر أى يتيم ،
ولا تزجر كل سائل ، فيدخل في ذلك كل يتيم وسائل .
﴿ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ ذكر الفعل وأضمر الفاعل ، وذلك كناية عن تعلقه بالمفعول
المحذوف ، أى فلا تنهره ولا تنهره .

وقدم اليتيم ، وقدم السائل ، للاهتمام بشأن كل منهما ، ورعاية لأمره ، وعدم
التخلي عنه ومعاونته .

والتزام حرف الهاء قبل الروى في « تقهر وتنهر » من غير أن يكون ذلك واجبا
في رعاية السجع يدخل تحت باب الإعانات ^(١) : لما في ذلك من مشقة على القائل ،
إذا كان بشرا ، ولا يشق شيء على الله القادر المعين .

﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ^(٢) ﴾

أضاف النعمة لرب الكون ، تشريفاً منه لها ، فهي من رحمته وهي كثيرة لا
تحصى ، وفيها معنى العموم من غير تخصيص بنوع من أنواعها .
وقدمها على الفعل « فحدّث » مبالغة في كثرة الحديث عنها .

* * *

(١) نهاية الإيجاز - الرازي ص ١٢٢ .

سورة الشرح مكية

(عدد الآيات ٨ آية، نزلت بعد الضحى)

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۖ وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ ۚ
الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ۚ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۚ ﴾

شرح الصدر : فتحه بإبعاد ما يصد عن الإدراك .

والاستفهام ، إذا دخل على النفس قرره ، فيصير المعنى : قد شرحنا لك صدرك .

وإنما خص الصدر بالذكر ؛ لأنه محل الإدراك والعلوم من النفس البشرية . وفيه امتنان على رسول الله ﷺ بفتح صدره وتوسيعه حتى ينهض برسالاته .

﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ ۚ ﴾

هذه الجملة معطوفة على ما قبلها على المعنى لا على اللفظ ، أى شرحنا لك صدرك ، ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ ۚ ﴾ ، والعطف للتوسط بين الكماليين : لاتفاق الجمليتين في الفعل الماضى .

والوزر : الذنب ، أى وضعنا عنك ما سلف منك في الجاهلية ، وأسقطنا عنك حملك الثقيل . والآية كناية عن عصمته من الذنوب ، وطهره من الأدناس . وقدم : ﴿ عَنكَ ۚ ﴾ ، على ﴿ وَزْرَكَ ۚ ﴾ ، لما فيه من تعجيل المسرة ، والتشويق إلى ما جاء بعده من وضع وزره عنه .

﴿ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ۚ ﴾

أنقض ظهرك : أثقله حتى يسمع له صوت من شدة ثقله ، يقول أهل اللغة : أنقض الحمل ظهر الناقة حتى سمع له صرير . وفى النقض استعارة لثقل الشيء وشدته على الظهر حتى تتخلخل منه العظام .

وكان لرسول الله ﷺ ذنوب قد أثقلتته - من باب ترك الأولى - فغفرها الله له ، كتهالكه على إسلام الكافرين المعاندين .

﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) ﴾

أى رفعنا ذكرك واسمك فى الدنيا والآخرة ، فما من صلاة أو خطبة إلا ويذكر فيها اسم رسول الله : أشهد ألا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله ، مقترنا باسم المولى سبحانه .

وقدم لك على ذكرك ، لكمال العناية بشأن رسول الله وأنه قد بلغ الغاية من رضا ربه عليه .

وهذه الآيات الأربع تتسم بالسجع الجميل الذى يثرى الألفاظ اتساقا وحسنا وإبداعا .

﴿ فَإِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦) ﴾

أى أن مع الضيق سعة ، ومع الشدة رخاء ، ومع الكرب فرج .

وفى ذلك تقرير وتأكيد بوعده تعالى بأن كل عسير يتيسر ، وكل شديد يهون ، وكل صعب يلين .

وجاء لفظ العسر مكررا ومعرفا . ولفظ اليسر مكررا منكرا ؛ فإذا أعيد المعرف كان الثانى عين الأول ، وإذا أعيد المنكر كان الثانى غير الأول فى المعنى ، ولذا يقول الرسول ﷺ : (لن يغلب عسر يسرين) .

والتكثير فى يسر للتفخيم والتعظيم .

وآل فى العسر للعهد ؛ لأن العسر معلوم معهود فى الدنيا للسامع وهو العسر الذى كانوا فيه ، واليسر مجهول مبهم ، فهمى للجنس .

﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (٧) وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ (٨) ﴾

إذا تدخل على فعل يفيد الاستقبال ، وهنا دخلت على فعل ماض ، للدلالة على تحقق وقوع الفعل ، فإذا فرغت من صلاتك ، فانصب واجتهد فى دعائك ، والآية غاية فى الإيجاز ، لاشتمالها على معان كثيرة ، وألفاظ قليلة .

وإلى ربك وحده دون غيره ، فارغب ، واضرع إليه راغبا فى الجنة راهايا من النار ، وتقديم الجار والمجرور « إلى ربك » يفيد القصر ، أى لا ترغب فى غير الله . ولا تعتمد على أحد سواه .

سورة التين مكية

(عدد الآيات ٨ آيات، نزلت بعد البروج)

﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) ﴾

أقسم سبحانه بالتين الذى يأكله الناس، وبالزيتون الذى يعصرون منه الزيت.
أقسم بالتين ؛ لأنه فاكهة طيبة ، خالصة من شوائب التفتيس ، وسبحان من هيأها على قدر اللقمة . ويقول عنه الأطباء : إنه أنفع الفواكه للبدن ، وأكثرها غذاء وشفاء ، فهو يلين الطبع ، ويحلل البلغم ويظهر الكليتين ، ويزيل ما علق بالمثانة من رمال ، ويدخل فى علاج البواسير ، وينفع فى النقرس .

وأقسم أيضا بالزيتون ؛ لعظم شأنه ، فهو إدام ودواء ، وشجرته هى الشجرة المباركة المذكورة فى القرآن فى قوله تعالى : ﴿ الزَّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ ﴾ النور آية ٢٥ .

وأقسم بطور سينين ، وهو الجبل الذى كلم الله عليه موسى عليه السلام واسمه جبل الطور ، ومعنى سينين ؛ المبارك ، والصفة بيانية .

وأقسم بهذا الجبل ؛ لأنه بالشام وهى الأرض المقدسة . وفيها المسجد الأقصى ، وأعظم البركات التى حلت به ووقعت فيه ، تكليم الله لموسى عليه .

﴿ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾ أى مكة ، وسماها آمينا لأنه آمن ، وفيه الحرم الأمين ، أى الأمن أهله ، أو المأمون فيه من يدخله ، والإشارة هنا تقيد التعظيم والتشريف ، كأنه ماثل أمام الأبصار ، واقع فى قلب كل مؤمن بالله لا يغيب عن الأفئدة ، وتتشوق إليه النفوس كلما حل موعد الحج .

وجواب القسم : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ﴾ والقسم بالام وقد زيادة فى تأكيد عظمة المقسم به وهو خلق الإنسان . وعبر بأفعل التفضيل ، أى أنه فاق فى تقويمه وحسنه كل المخلوقات الأخرى ، فقد خلق كل ذى روح مكيا على وجهه إلا الإنسان ، فقامته معتدلة « وأل » فى الإنسان للجنس والاستغراق ، أى

خلقنا كل إنسان ، فى أحسن صورة وأجمل هيئة متناسب الأعضاء ، فאלله خلق آدم على صورته كما يقول المصطفى ﷺ .

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ (٥)

أى رددناه إلى أرذل العمر ، فصار إلى الهرم بعد الشباب ، وإلى الضعف بعد القوة ، فينقص عقله ، ويخرف كالصبيان .

فهو يصير من أسفل السافلين ، والسافلون هم الضعفاء ، والزمنى والأطفال ، والشيخ الكبير أسفل هؤلاء جميعا ، كما عبر عنه بأفعل التفضيل ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ نَعْبِرُهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ﴾ يس ٦٨ فينقوس ظهره بعد اعتدال ، ويبيض شعره بعد اسوداد ، ويكل سمعه ، ويضعف بصره ، ويتغير منه كل شيء .

﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ (٦)

الاستثناء هنا منقطع ، أى لكن الذين آمنوا ... إلخ لأن الردة إلى أرذل العمر ليست خاصة بالمؤمن ؛ بل يدخل فيها الكافر والعاصى أيضا ، فلا يصلح هنا أن يكون الاستثناء متصلا إذ لا معنى له .

﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ قدم الخبر للاهتمام بأمر المؤمنين ومن عمل منهم عملا صالحا ^(١) ونكر أجر لتعظيم أجرهم . وغير ممنون : غير مقطوع أى ثواب دائم لا ينقطع .

﴿ فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدَ الدِّينِ ﴾ (٧)

الخطاب للإنسان الكافر ، والاستفهام للتوبيخ والتعجب ، أى : أى شيء يدعوك إلى التكذيب بالبعث والحساب . فالحذف جاء للإيجاز والاختصار ، وهو مفهوم من سياق الآية .

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ﴾ (٨)

فيه وعيد شديد للكفار ، والاستفهام إذا دخل على النفى صار إيجابا أى الله أحكم الحاكمين وأتقن الصائغين ، والذى خلق الإنسان من نطفة قادر لا شك على بعثه وحسابه .

(١) والتقديم باب كثير الفوائد . جم المحاسن . واسع التصرف . بعد الغاية . فإذا راقك الكلام ولطف موقعه عندك . كان سبب أن راقك ولطف عندك . أن قدم فيه شيء . وحول اللفظ من مكان إلى مكان . الدلائل ص ١٠٦ . عبد القاهر .

سورة العلق مكية

(عدد الآيات ١٩ آية، وهي أول ما نزل من القرآن)

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) ﴾

اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾

هذه السورة أول ما نزل من القرآن على سيدنا محمد ﷺ ، وكان يتعبد في غار حراء ، وحين بلغ الأربعين من عمره ، وفي الليلة السابعة عشرة من شهر رمضان جاءه جبريل وهو في الغار ، فقال له ﴿ اقْرَأ ﴾ ، ثلاث مرات ، والرسول في كل مرة يجيب : ما أنا بقارئ ، وجبريل يضمه ويعصره ، فيرسله ، ثم قال له : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ .

الأمر بالقراءة يقتضى مقروءا ، أى اقرأ ما يوحى إليك ، فالمفعول به محذوف للاختصار وضيق المقام .

والباء هي ﴿ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ للاستعانة ، أى اقرأ مستعينا باسم ربك .
﴿ الَّذِي خَلَقَ ﴾ وصف للرب ، لبيان نعمه وتذكير العباد بها : لأن الخلق من أعظم النعم ، ويترتب عليه سائر النعم .

وحذف المفعول به ، أى : الذى خلق الخلائق كلها . لإفادة العموم . ثم خصص الإنسان بالذكر دون غيره من المخلوقات ، فقال : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ تشريفا له : : لما فيه من بديع الخلق وعجيب الصنع .

وفيه تفصيل بعد إجمال ، لأن الإنسان ذكر مرة مجملا في الآية السابقة ، ثم ذكر بنصه في هذه الآية .

﴿ وَال ﴾ في الإنسان لإفادة الجنس والاستفراق ، أى خلق كل إنسان .

﴿ مِنْ عَلَّقَ ﴾ الدم الجامد ، ونكر ﴿ عَلَّقَ ﴾ لحقارتها وتفاهتها والقادر على خلق الإنسان قادر لا شك على تعليم القراءة للحى المتكلم، وجملة ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَّقٍ ﴾ جاءت مبينة ومفسرة للجمله السابقة ﴿ الَّذِي خَلَقَ ﴾ ولذا جاءت بدون واو العطف ، لأن المفسر والمفسر شئ واحد فلا يجوز دخول الواو بينهما .
وفى التفسير والبيان بعد الإبهام الثقات للذهن وتطلعه لمعرفة ما أبلغه أولاً ثم فسر ثانياً .

﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾ (٢٧)

كرر الأمر بالقراءة تأكيداً وتقريراً ، وتمهيداً لما يذكر بعدها ، أى افعل ما أمرت به من القراءة .

وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ : جملة مستأنفة لإزاحة ما اعتذر به ﷺ من قوله ما أنا بقارئ؛ لأن القراءة من شأن من يكتب ويقرأ ، وهو أمى .
﴿ الْأَكْرَمُ ﴾ الحليم عن جهل العباد فلا يجعل بعقوبتهم . وهى أفعل تفضيل أى الزائد هى الكرم على كل كريم ، لأنه ينعم ويكرم دون غرض .
﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ (٢٨)

غير بالاسم الموصول تنويهاً بشأنه سبحانه ، ولذكره سابقاً بأنه الرب ﴿ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾ وتعظيماً لشأن ما يأتى به من تعليم الإنسان الخط بالقلم ، فالقلم نعمة من الله عز وجل ، مما يدل على كمال كرمه بأن علم عباده ما لم يعلموا ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم .
وفى العبارة حذف مفهوم من السياق ، أى علم الإنسان الكتابة بالقلم ، فالمفعول محذوف لتخصيصه وتعيينه ؛ إذ أن الكتابة لا تتعلم إلا بوسيلة القلم وما يخطه من حروف .

﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (٢٩)

هذه الآية بدل اشتمال من قوله ﴿ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ أى علمه الأمور الكلية والجزئية مما لم يكن يعلمه من قبل .

﴿وَال﴾ في الإنسان تفيد العموم ، أى علم كل إنسان ما لم يعلم حين ولادته . أمه .

وأماء في قوله ﴿ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ للموصولية ، وجاءت هنا للمبالغة في بيان جهل الإنسان قبل تعليمه وإدراكه .

وهناك مناسبة عظيمة بين الخلق من العلق ، وبين تعليم القلم ، فأدنى مراتب الإنسان تكوينه من علقه ، وأعلاها كونه عالماً ، فانتقاله من دم جامد إلى تعليم العلم طفرة عظيمة امتن بها الله على الإنسان .

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَافٍ ۖ أَنْ رَآهُ اسْتَفْتَى ۚ ﴾ (٩) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ۚ (١٠)

من هذه الآية إلى آخر السورة نزل في أبى جهل .

كلا ردع وزجر لمن كفر نعمة الله عليه بسبب طغيانه ، ﴿وَال﴾ في الإنسان ، تفيد العهد أى الم عهد وهو أبو جهل .

ويطغى يتجاوز الحد ويستكبر على ربه .

وعبر بأن ، وأدخل اللام على الخبر ليفيد تقرير طغيانه واستكباره .

﴿ أَنْ رَآهُ اسْتَفْتَى ۚ ﴾

هذه الآية جاءت علة وسبباً في الآية السابقة ، أى لماذا الإنسان يطغى ؟ أو لماذا يطغى أبو جهل ؟ .

الإجابة : لأنه رأى نفسه مستغنياً ، ولذا جاءت هذه الآية منفصلة عما قبلها دون حرف العطف .

وحذف المتعلق بالفعل ﴿ اسْتَفْتَى ﴾ أى استغنى بماله وعشيرته وأنصاره . والحذف إيجاز وبراعة في القول حتى إنه يعد أساس البلاغة العربية كلها ، وكان أبو جهل إذا أصاب ما لا زاد في ثيابه ومركبه وطعامه وشرايه ، وذلك طغيانه .

والضمير في رآه ، يعود على أبى جهل المعبر عنه بالإنسان ،

﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ۚ ﴾ (١٠)

أى المرجع وقدم الجار والمجرور لإفادة القصر ، أى إلى ربك المرجع وليس إلى أحد سواه .

وعبر بالمصدر ﴿الرُّجْعَى﴾ أى أن الله هو المرجع والملاذ ، وكان يوم الآخرة كله مرجع إلى الله وليس شيئاً آخر ، فالموت والبيعث والحساب والجزاء كل ذلك وغيره مرجعه إلى الله سبحانه ، لا إلى غيره أو مشاركاً له أحد .

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (١٤) عَبْدًا إِذَا صَلَّى (١٥) ﴾

الذى ينهى عبد الله إذا صلى ، هو أبو جهل ، والمراد بالعبد هو محمد ﷺ . والاستفهام فى ﴿ أَرَأَيْتَ ﴾ للتقبيح من شأن أبى جهل واستنكار ما يفعل . وعبر بالاسم الموصول ﴿ الَّذِي ﴾ استهجاناً للتصريح باسمه لأنه تافه حقير عند الله وعند المؤمنين بالله .

وتكثير ﴿ عَبْدًا ﴾ لتعظيم رسوله ورقة لشأنه .

وإذا تفيد الاستقبال فتحقق أن تدخل على فعل المستقبل لا على الفعل الماضى ، ولكنه عبر بالماضى ﴿ صَلَّى ﴾ للدلالة على أن صلاة الرسول ﷺ أمر محقق الوقوع ، بل قد وقع بالفعل .

وعبر بالرؤية البصرية ، ﴿ أَرَأَيْتَ ﴾ بحيث يراه كل من تتأتى منه الرؤية ، أو كأن ذلك شيء ملموس يراه كل مبصر .

﴿ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى (١٦) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى (١٧) ﴾

الاستفهام للتعجب ، والرؤية هنا قلبية بمعنى أخبرنى بذلك الناهى ، هل هو على الهدى ، وهل هو يأمر بالتقوى حين يأمر بعبادة الأصنام . وفى ذلك تهكم مرير بشأن الناهى وهو أبو جهل ، لأن عبادة الأصنام ليست فيها من الهدى شيء ، وليس فيها أمر بالتقوى ، وبالتالي ليس فيها هدى البتة .

﴿ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٨) أَمْ يَعْلَمُ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى (١٩) ﴾

أى أخبرنى إن كان ذلك الناهى مكذباً للحق ، معرضاً عن الصواب ، والاستفهام هنا فيه معنى الخبر ، والخطاب لكل من يصلح له الخطاب وليس خاصاً برسول الله ﷺ .

﴿ اللَّهُ يَرَى (٢٠) ﴾ ليست الرؤية جائزة على الله سبحانه لأنه مخالف

للحوادث، والمراد أن يطلع على أحوال ذلك الناهي ، فيجازه عليها ، فكيف يجرؤ على نهيه رسول الله عن الصلاة .

وتكرار الرؤية ثلاث مرات تفيد تأكيد الكلام وتقديره .

﴿ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) ﴾

كَلَّا أداة زجر وردع للناهي عن عبادة الله ، وترويج لعبادة الأصنام .
واللام هي آخر كلمة ﴿ لَنَسْفَعًا ﴾ أداة قسم ، أي والله لئن لم ينته لنأخذن بناصيته ونجذبه جذبا شديدا ونسوقه إلى نار جهنم يتلظى فيها .
والنون الأخيرة هي لَنَسْفَعَنَّ لتوكيد القسم ، وأن ما أقسم به وهو الأخذ بالناصية واقع على وجه التأكيد .

وقد يكون المراد ليس جذبه من ناصيته فقط ؛ بل جذب جميع جسده وسوقه لجهنم ، فتكون الناصية مجاز مرسل علاقته الجزئية .
وفي التعبير بالناصية نهاية في الإذلال والمعة ؛ لأن الأخذ بمقدم شعر الرأس وسحبته للنار يدل عند العرب على الإهانة والتحقير ، والعرب تأنف من فعله ، وليس بعد ذلك عندهم تحقير آخر .

﴿ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) ﴾

الناصية لا تكذب ولا تخطئ ، وإنما الكاذب المخطئ هو صاحب الناصية ، وأسند الكذب والخطأ إلى الناصية على سبيل المجاز .
والتعبير باسم الفاعل في كاذبة خاطئة ، للدلالة على استمرار كذبه وخطئه ، وأنه لا يكف عن ارتكاب هاتين الصفتين القبيحتين .

﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) ﴾

أي يدعو أهل النادي ، ورواد المجلس ، فإسناد الفعل إلى النادي مجاز لأن المراد إسناده إلى أهل النادي ، لأن النادي لا يدعى ولا يستجيب إذا دُعي ، والعلاقة المحلية ، من « تسمية الحال باسم المحل » (١) .

(١) التبيان ص ٢٢٤ .

﴿ سَدَّعُ الزَّيَّانِيَّةُ (٦٨) ﴾

وهم ملائكة غلاظ شديد لا يطاق عذابهم ، والعرب تطلق هذا الاسم على من اشتد بطشه وقهره ، وشبه الزيانية برجال الأمن والشرطة على الاستعارة المكنية .

﴿ كَلَّا لَا تَطَعُهُ وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (٦٩) ﴾

كلا تكرار للنزجر والقمع ، فلا تطعه فيما دعاك إليه ، وأمره بالصلاة والدوام عليها ، وعبر بالسجود ﴿ وَأَسْجُدْ ﴾ مجازا لعلاقة الجزئية ؛ لأن المسجود جزء من الصلاة ، وتقرب إلى الله سبحانه بالعبادة والطاعة .

* * *

سورة القدر مكية

(عدد الآيات ٥ آيات، نزلت بعد عبس)

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنْزِيلُ الْمَلَكِ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ (٥) ﴾

ذكر رسول الله ﷺ رجلا من بنى إسرائيل ليس السلاح في سبيل الله ألف شهر ، فعجب المسلمون من ذلك فأنزل الله هذه السورة .

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) ﴾

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ ﴾ ضمير العظمة يعود على الله سبحانه ، فهو الخالق المنزل والهاء في ﴿ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ تعود على القرآن وإن لم يتقدم ذكره ، وشهرته تقوم مقام التصريح به .

وتكون ليلة القدر في شهر رمضان وهي ليلة مباركة على كل من ينتظرها ويسأل الله فيها .

وسميت ليلة القدر ؛ لأن الله يقدر فيها ما شاء إلى السنة القابلة ، ولعظم قدرها وشرف منزلتها .

وأسند الإنزال إلى الله سبحانه ، مع أنه كان بواسطة الوحي جبريل ، من إسناد الفعل إلى الفاعل المعنوي ، أي أن الله هو المنزل وحده ، ومن عداه تبع له وبواسطة ، وليس منزلا حقيقيا .

وعبر بالفعل الماضي ﴿ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ أي حكمنا بإنزاله ، وقدرناه في الأزل ، وقضينا به على وجه الحق والصواب .

والحكمة في إنزال القرآن ليلا ﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴾ لأن أكثر الكرامات ونزول النوحات ، والإسراء إلى السموات يكون بالليل ، وعبادة الليل أفضل من عبادة النهار ؛ لأن حضور قلب الإنسان فيه أجمع ، والعبادة فيه أخشع .

نزل القرآن جملة واحدة في ليلة القدر من اللوح المحفوظ ، ثم نزل على الرسول ﷺ منجما مفرقا في ثلاث وعشرين سنة ، وكان ابتداء تنزيله أيضا في ليلة القدر .

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (١) ﴾

جاء هذا الاستفهام لتفخيم أمرها ورفع شأنها ، وليس في مقدور الخلق مهما قوى إيمانهم أن يدركوا عظمتها ، إذ لا يدركها سوى الله سبحانه .

وذكر ليلة القدر تعظيم لهذا الوقت من الشهر الذي تظهر فيه ، وتكرار ﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴾ ثلاث مرات في السورة إحداهما عقب الأخرى يدل دلالة قاطعة أن هذه الليلة أمرها عجيب وقدرها رفيع ، ومن أجل ذلك عبر بالاسم الظاهر بدلا من الضمير إذ أن حقيقة الأسلوب :

إنا أنزلناه في ليلة القدر ، وما أدراك ما هي ، هي خير من ألف شهر ، فالتعبير بالاسم الظاهر أتى لكمال العناية بها ، والتأكيد على قيمتها .

﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٢) ﴾

الآية فيها حذف مفهوم من السياق ، تقديره العمل في ليلة القدر خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر . والحذف جاء لأمن الليس والاختصار ، والاختصار بلاغة .

هذه الليلة فيها من البركة مالا يعدلها العمل في ألف شهر ليس بينها هذه الليلة ، أي العمل التعبدي من صيام وصلاة وقيام وتوجد .

وخير أفعال تقضيل جاء على غير باب ، أي أعظم قدرا وأكثر أجرا ، من تلك المدة مهما تناولت ، ومن يأتي بالطاعة في ليلة القدر ، صار ذا قدر عظيم ومنزلة كبيرة .

وفضل ليلة القدر على ﴿ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ بالتخصيص ، للتكثير ؛ لأن العرب تذكر الألف ولا تريد حقيقتها ، وإنما تذكرها للمبالغة في كثرة الشيء وتعظيمه .

﴿ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (٤) ﴾

تنزل أي تنزل ، وحذف إحدى التاءين تخفيفا للنطق . أي تهبط الملائكة من

السموات إلى الأرض ، والروح هو جبريل ، وهو من الملائكة ، فذكر مرتين ، مرة حين دخل في الملائكة ، ومرة ذكر منفردا تعظيما له ، وتشريفا لشأنه .

وهذه الآية مستأنفة لبيان السبب الذي فضلت من أجله ليلة القدر على غيرها . وكأن سائلا يسأل لِمَ فضلت ليلة القدر على غيرها من الليالي ؟ ولم كانت خيرا من ألف شهر ؟

كان الجواب : لأن الملائكة وجبريل ينزلون فيها على الخلق بإذن ربهم ، ولذا جاءت الجملة دون حرف عطف ويسمى هذا عند البلاغيين : شبه كمال اتصال . ونكر ﴿ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴾ أى من كل أمر عظيم وجليل ، للتفخيم والتفخيم . أو من كل أمر شائن وحقير ، إبرازاً لضالته وحقارته .

﴿ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ۝٥ ﴾

قدم الخبر لإفادة القصر ، أى ما هي إلا سلام ، لا يحدث فيها إلا النفع والخير ، ولا يستطيع الشيطان أن ينفذ منها ويسبوء للخلق ، فهم في حماية الله ، والشياطين قد سلمت بالأغلال في هذه الليلة على الخصوص من شهر رمضان . ﴿ سَلَامٌ هِيَ ﴾ واللييلة ليست نفس السلامة ؛ بل السلامة تقع فيها ، فهي مجاز عقلى علاقته الظرفية الزمانية .

﴿ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ حتى وقت طلوع الفجر لا ينقطع نزول الملائكة فوجا بعد فوج ، ، بدءا من غروب الشمس .

والسورة كلها وردت في ثوب من السجع الذى ختمت الآيات فيها بحرف الراء المكسورة ، وسكون ما قبلها باعتبارها من لزوم ما لا يلزم مما يجعل للكلام موسيقى وإيقاعا جميلا مؤثرا في النفس .

* * *

سورة البينة مكية

(عدد الآيات ٨ آيات، نزلت بعد الطلاق)

﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ① ﴾

رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ② فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ③ ﴾

الذين كفروا من أهل الكتاب : هم اليهود والنصارى ، والمشركون : هم مشركو العرب الذين يعبدون الأصنام . ومنفكين : منفصلين متفرقين ، حتى تأتيتهم البينة ، المراد بالبينة هو رسول الله ﷺ .

والمعنى إجمالاً : إخبار الله تعالى عن الكفار أنهم لم ينتهوا عن كفرهم وشركهم بالله حتى أتاهم محمد ﷺ بالقرآن . والدليل على أن البينة هي رسول الله ﷺ قوله تعالى مفسراً البينة بأنها ﴿ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴾ والصحف المطهرة هي القرآن الكريم الذي يتلوه الرسول عن ظهر قلب ، وهي مطهرة ، أى منزهة عن الزور مطهرة من الباطل والكفر والشبهات ، وهذه الصحف فيها آيات وأحكام مستقيمة محكمة .

الذين كفروا ، ذكرهم إجمالاً ثم فصل وبين فقال من أهل الكتاب والمشركون . ﴿ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ عبر بالمضارع وليس بالماضى باعتبار حال المحكى عنه .

لا الحكاية ، وخص أهل الكتاب بالذكر وإن كان غيرهم مثلهم في التفرق لأنهم كانوا أهل علم ، فإذا تفرقوا كان غيرهم بالتفرق أولى .

وإسناد الإتيان إلى البينة ليس إسناداً حقيقياً ؛ بل إسناداً مجازياً ، لأن البينة لا يتأتى منها الإتيان ، ولذا وضح البينة بأنها رسول من الله . فالرسول يدل من البينة ، ولذا لم تأت معطوفة على ما قبلها ؛ لأن البديل والمبدل منه شيء واحد . ونكر « رسول » للتعظيم والتتخيم لشأن رسوله ، وزاده تشريفاً بأنه من الله ، وإيذاناً بغاية ظهور أمره ، وكونه موعوداً بمجيئه في الكتابين التوراة والإنجيل .

﴿ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴾ يتلو عن ظهر قلب ، وليس عن كتاب .

والرسول كان أمياً لا يقرأ ، فلم يقرأ عن الصحف ، وإنما تلا ما تتضمنه الصحف وأوقع التلاوة على الصحف ، ﴿ يَتْلُو صُحُفًا ﴾ مجازاً علاقته المحلية أو المكانية . ووصف الصحف بأنها مطهرة زيادة في بيانها وإظهارها بأنها منزهة عن الزور ، مطهرة من الباطل .

﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ أى هي تلك الصحف أمور مكتوبة بالحق ناطقة بالصواب . ونكر ﴿ كُتُبٌ ﴾ للتعظيم ، ووصفها بأنها قيمة زيادة في بيان عظم شأنها . وقدم الخبر الجار والمجرور ، ﴿ فِيهَا ﴾ ، على المبتدأ ليس لكون المبتدأ نكرة ، فقد عرف بالوصف وازداد إيضاحاً ، وإنما قدم لبيان أن الصحف ، أو الضمير الذي يعود عليها موضع عناية واهتمام .

﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ۚ ﴾

هذه جملة مستأنفة لتوبيخ أهل الكتاب وتقريعهم ، وبيان أن ما نسب إليهم من عدم الانفكاك لم يكن لاشتباه الأمر عليهم ؛ بل كان بعد وضوح الحق ، وظهور الصواب ، بعد مبعث الرسول ونزول القرآن .

وأفرد ذكر أهل الكتاب ، بعد أن كانوا مجتمعين مع المشركين في الآية الأولى؛ للدلالة على شناعة حالهم ، فهم أهل كتاب ، وعلماء بأمور دينهم ، وجهود العالم أقبح وأشنع من إنكار الجاهل .

﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ

وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ۝ ﴾

هذه الآية تفيد التقريع والتوبيخ لتفرقهم بعد مجيء البينة ، وأنهم ما أمروا في كتبهم إلا لأجل أن يعبدوا الله جاعلين دينهم خالصاً له سبحانه . ﴿ حُنَفَاءَ ﴾ مائلين عن كل الأديان الأخرى ، متجهين إلى دين الإسلام وحده ، والعبادة لتجلب المنفعة أو دفع المضرة ليست من قبيل الإخلاص .
ولفظه ﴿ حُنَفَاءَ ﴾ فيها تأكيد للإخلاص ، الذي هو الميل عن الاتجاه الفاسد إلى الاتجاه السليم وحنفاء تؤدي هذا المعنى نفسه .

وذكر إقامة الصلاة ﴿يَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ لأنها العمدة في باب العبادات البدنية، وإيتاء الزكاة في قوله ﴿وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ لأنها العمدة في باب العبادات المالية .

﴿وَذَلِكَ دِينَ الْقِيَمَةِ﴾ ذلك إشارة إلى عبادة الله والإخلاص فيها ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، كأنها ماثلة أمام العين المبصرة .

﴿دِينَ الْقِيَمَةِ﴾ أى دين الملة القيمة ، فالقيمة صفة لموصوف محذوف ، وقد حذف الموصوف اختصارا وإيجازا ولأمن اللبس .

وأضاف الدين إلى القيمة ، وهو صفته ؛ لأن اللفظين مختلفان ، أو من إضافة الشيء إلى نفسه .

وأنت القيمة ، دين القيمة ، والأصل الدين القيم ؛ لأن الآيات هائية ، أو لأن الهاء جاءت للمدح والمبالغة .

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ (٤٤)

﴿أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أى يصيرون إليها يوم القيامة فهو مجاز مرسل باعتبار ما سيكون ، فهذا مآلهم ومصيرهم .

﴿أُولَئِكَ﴾ أشار إليهم كأنهم ماثلون أمام الأعين ، ولكنهم مطردون من رحمة الله ، فأشار إليهم باللفظ الذى يفيد البعد .

﴿هُمُ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ شر الخليقة أعمالا ومصيرا ومقاما .

وتوسط ضمير الفصل بين المبتدأ والخبر ﴿أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ لإفادة الحصر ، أى هم شر الخليقة دون غيرهم .

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ (٤٥)

لما ذكر الكافرين ومصيرهم عقب بذكر المؤمنين وما ينتظرهم من خير وفلاح، والمؤمنون لهم صفات تختلف تماما عن صفات الكافرين، وليس بين الفريقين صفة مشتركة ؛ بل صفات متضادة ، فانفصلت جملة المؤمنين عن جملة الكافرين ولم تعطف عليها .

فالمؤمنون جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح . وذكر مع المشركين دخولهم نار جهنم ، وطوى مع المؤمنين ذكر دخولهم الجنة وما ينتظرهم من نعيم أخروي ، فالآية فيها إيجاز قصير ، بمعنى أن تحتوى على معانٍ كثيرة وغير عنها بألفاظ قليلة .

﴿ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِّ ﴾ توسط ضمير الفعل لإفادة القصص ، أى أنهم دون غيرهم المنعوتون بالشرف والفضيلة والخيرية . ولأجل ذلك كان :

﴿ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ (A)

المراد بجنات عدن : الكناية عن أفضل الجنات فهي درجات كما أن النار دركات .

و ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ الأنهار لا تجري وإنما الماء هو الذى يجرى داخل الأنهار ، ، والأنهار مكان للماء ، فهو تعبير مجازى علاقته المكانية .

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ لا يخرجون منها ولا يرتحلون عنها . وذكر كلمة ﴿ أَبَدًا ﴾ لإفادة دوامهم فى النعيم واستقرارهم .

﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ جملة مستأنفة لبيان ما تفضل الله به عليهم بعد الجزاء ، وهو الرضوان حيث أطاعوه وامتثلوا لشراعه .

﴿ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ حيث أباح لهم الخيرات ولاح لهم ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

هذا كله جزاء الإيمان والعمل الصالح ، فكان لهم الرضوان وحسن الثواب .

* * *

سورة الزلزلة مكية

(عدد الآيات ٨ آيات، نزلت بعد النعام)

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ① وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ② وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ③ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ④ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ⑤ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّرِوَا أَعْمَالِهِمْ ⑥ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ⑦ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ⑧ ﴾

نزلت هذه السورة في رجلين كان أحدهما يأتيه المسائل، فيستحي أن يقدم له الثمرة والكسرة لقلتها، وكان الآخر يتهاون بالذنوب اليسير ويقول: إنما أوعدهم الله النار على الكافرين. فنزل قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ⑦ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ⑧ ﴾ ترغيباً في الخير ولو كان قليلاً ما دام بنية خالصة للمعطاء. وتحذيراً من الشر وإن كان قليلاً، فإنه يوشك أن يكون عظيماً؛ للجرأة فيه على الله .

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ① ﴾ إذا حركت أرض تحريكاً عنيفاً عند قيام الساعة. وإذا شرطية جوابها تحدث أخبارها في الآية الرابعة. والزلزال : مصدر جاء به للتأكيد بوقوع الزلزلة التي لا مرأى فيها . وليس هو بالزلزلة التي نعرفها ؛ بل هي زلزلة مخصوصة يقتضيها موقف الساعة ، وعظم جرم الأرض .

وتكرار حرف الزاى وحرف اللام ينبئ عن زلزلة مخصوصة استوجبتهما حكمة الله وقدرته ؛ لما فيه من عنف وقعقة.

يقول عبد القاهر في هذه الآية : أثبت الفعل في ذلك لما لا يثبت له فعل إذا رجعنا إلى المعقول على معنى السبب ، وإلا فمعلوم أن الأرض لا تخرج الكامن في بطنها من الأثقال، ولكن إذا حدثت فيها الحركة بقدرة الله ظهر ما كنز فيها وأودع جوفها ^(١).

(١) الأسرار عبد القاهر - ط شاکر ٣٨٩، ونهاية الإيجاز من ١٧٠.

﴿ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ (٢) أي لفظت الأرض ما هي جوفها من الدفائن والأموات ، والميت في باطن الأرض ثقل لها ، وعلى ظهر الأرض ثقل عليها .
 وأسند الإخراج إلى الأرض ، وهي ليست الفاعل الحقيقي ، وإنما المخرج هو الله سبحانه ، فالإسناد إلى الأرض مجاز علقى علاقته المكانية .
 وتكرار لفظ الأرض صريحا ، فعبر بالاسم الظاهر بدلا من الضمير ، زيادة في تقرير الفعل المنسوب للأرض من زلزلة وإخراج .
 والآيتان : إذا زلزلت ، وأخرجت الأرض ، يرتبط إحداهما بالآخر ارتباطا وثيقا : إذ الثانية مسببة عن الأولى ، والإخراج من فعل الزلزلة ، فكان حقها أن تأتي بلا حرف عطف « الواو » نظرا لشدة اتصالهما ، كما يقول البلاغيون ، ولكن الآية جاءت مخالفة لقواعدهم .

﴿ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ﴾ (٣)

﴿ آل ﴾ هي الإنسان للجنس ، أي كل فرد من أفراد الإنسان قال : ما لها زلزلت ؟ متعجب لما يدهمه من أمرها ، ويبهره من خطبها . لأى شيء زلزلت ، ولأى أمر أخرجت ثقلها ، فهي تقى أفلاذ كبدها ، وتلفظ دفائن كنوزها .

﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ (٤)

وحين يكون الأمر كذلك من الأهوال والخطوب تخبر الناس بما عملوا من خير واقتربوا من شر . تخبرهم بلسان حالها على سبيل المجاز ، أو بلسان المقال بما أنطقها الله على سبيل الحقيقة ، فيعجب الإنسان لحديثها .
 وحذف المفعول هنا للمعلم به ، والتقدير : تحدث الخلق أخبارها والحذف بلاغة واختصارا .

والأرض لا تتحدث ، ولا تنقل الأخبار ، وإنما الكلام مسوق لبيان تهويل ذلك اليوم ، حتى أن الجماد ينطق فيه ، ويحدث الناس بأعمالهم الخيرة والشريرة ، فهو تعبير مجازي .

ولكن قوله بعد ذلك :

﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ (٥)

يفيد أن حديث الأرض للخلق ونطقها حقيقة ، لأن الله أوحى إليها بالحديث .
وقال ﴿ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ ولم يقل : أوحى إليها ، لموافقة الفواصل واتساقها مع
الآيات قبلها ، ولأن العرب تضع « لام » الصفة موضع « إلى » .

﴿ يَوْمَئِذٍ يُصْدَرُّ النَّاسُ أَشْتَاتًا لَّيْرُوا أَعْمَالَهُمْ ﴾ (٦)

أى يخرجون من قبورهم إلى موقف حسابهم ، ومن موضع الحساب إلى
الجنة أو النار ، فبعضهم آمن وبعضهم خائف ، وبعضهم بيض الوجوه والآخر
سود الوجوه ، وبعضهم ينصرف إلى جهة اليمين ، وبعضهم إلى جهة اليسار ، مع
تفرقهم فى الملل واختلافهم فى العمل .

﴿ لَّيْرُوا أَعْمَالَهُمْ ﴾ أى ليرىهم الله جزاء أعمالهم : لأن العمل لا يرى يوم
القيامة ، وإنما يرى جزاؤه ، ثوابه أو عقابه ، فينعم به أو يجاز منه .

﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (٨)

الذرة : أصغر ما يكون من النمل ، أى من يعمل عملاً يكون وزنه قدر حجم
النملة الصغيرة من خير أو شر ، لايد أن يرى جزاءه يوم القيامة .

والتكثير فى ﴿ خَيْرًا وَشَرًّا ﴾ للتقليل ، أى مهما كان حجمه قليلا لا يعول
عليه ، فهو عند الله كثير يحاسب عليه .

والتعبير ﴿ بِمَنْ يَعْمَل ﴾ الأولى ، كناية عن السعداء ، ﴿ وَمَنْ يَعْمَل ﴾ الثانية
كناية عن البؤساء .

* * *

سورة العاديات مكية

(عدد الآيات ١١ آية ، نزلت بعد العصر)

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (٣) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (٤)
فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا (٥) إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ (٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ
الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨) أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (٩) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (١٠)
إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ (١١)﴾

سبب نزول السورة أن رسول الله ﷺ بعث سرية إلى العدو فأبطأ خبرها على رسول الله ﷺ شهرا، فقال المنافقون إنهم قتلوا، فنزلت السورة إخبارا للنبي عليه السلام بسلامتها، وأشار له بإغارتها على العدو، وتعبها على المرجفين الجاحدين للحق، الحاسدين للمؤمنين.

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١)﴾

العاديات: الخيل الجارية بسرعة نحو العدو.

ضبحا: مصدر مؤكد للعاديات، لأن الضبح نوع من السير ونوع من العدو. أو مصدر لفعل محدوف، أى تصبح ضبحا، والضبح: صوت أنفاس الخيل إذا عدت، وأصل الضبح للثعلب، فاستعير للخيل، وهو صوت يسمع من أفواه الخيل ينبعث من أجوافها، وهو شيء غير الصهيل والحممة.

﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢)﴾

الموريات: هى الخيل حين تورى النار بسنابكها، والإبراء: إخراج النار. وعندما تضرب الخيل بحوافرها وتصلك الحجارة، تقدح فينبعث منها الشرر.

وقدحا: مصدر يؤكد معنى الإبراء. فالقدح استعارة لضرب الحجارة بالحوافر، والإبراء بالقدح واقع بالليل، ولا يظهر فى النهار.

﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾ (٤)

الخيل التي تغير على العدو وقت الصباح، وأسند الإغارة إلى الخيل وهي لأهلها من الفرسان، فالتعبير بالمجاز العقلي وعلاقته أن الخيل وسيلة وآلة للإغارة، وأنها عمدتهم في النصر والإفادة.

وهذه الآيات الثلاث من أشرف ألوان السجع لأنها مؤلفة من الفاض قليلة^(١).

﴿فَأَثَرُنْ بِهِ نَقْعًا﴾ (٥)

أى هيجن الفيار فارتفع عن الأرض وجرى في الهواء، وثار في وجه العدو. والنقع: الارتفاع، وسمى نقعا لارتفاعه. وعطف الفعل «أثرن» على الفعل السابق الذي يدل عليه اسم الفاعل، لأنه بمعنى الفعل ويكون المعنى: اللاتى عدون، فأورين، فأغرّن. فأثرن به نقعا. والألف واللام في الصفات تعد من الأسماء الموصولة. وانظر لروعة التعبير القرآنى حين خصص الإثارة بالصبح لأنه وقت الإغارة، كما أن النقع لا يظهر أثره ليلا. «فالموريات قدحا» مع «أثرن به نقعا» تشكل طباقا لطيفا غاية في الجمال والروعة.

﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ (٦)

فصاروا بخيلهم وسط الأعداء يشتتون مجموعهم. والفاء في المواضع الأربعة تفيد ترتيب كل منها على ما قبلها، وتنظمه في سلكه، فتوسط الجمع مترتب على الإثارة، والإثارة مترتبة على الإغارة، والإغارة مترتبة على الإبراء، والإبراء مرتب على العدو، فالنسق في النظم يدل على هذا الترتيب، كحلقات يتصل بعضها ببعض، ولو عبر القرآن بغير الفاء التي تفيد الترتيب والتعقيب لتغير المعنى يتغير النظم.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ (٧)

(١) التبيان ص ٥٠٤.

هذه الآية فيها من التأكيد ما لا مزيد عليه «إن واسمية الجملة ودخول اللام على الخبر (لكنود)» فهي جواب قسم.

وليس المراد بالإنسان العموم، وإنما بعض أفرادها، فهو مجاز مرسل علاقته العموم، فليس كل الناس يكثر بنعمة ربه، والكنود: الكافر بالنعمة، الجاحد للحق.

وأخر الخبر «لكنود» رعاية لما يأتى بعدها من فواصل الآيات، فهي مختومة بالدال، ولو قدم الخبر ووضع فى موضعه، لفقدنا الفاصلة القرآنية ورعايتها، وأصبح عطلا من الزينة اللفظية التى تؤثر فى حسن الكلام تأثيرا إيجابيا.

﴿وَأَنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧﴾

إن الإنسان على كنوده لشهيد على نفسه، فآثر الكفر والحسد، وجحوده للحق، يظهر ولا يمكن إخفاؤه.

وعبر بالاسم الإشارة «ذلك» كأنه حاضرا مشاهدا لا يمكن إنكاره، ولا أدل على مشاهدته من الإشارة إليه، والشهادة تكون بلسان الحال لا بلسان المقال.

﴿وَأَنَّهُ لَحُبُّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾

أى لحب المال لقوى مجد فى طلبه، متهالك فى تحصيله.

وعبر عن المال بالخير، لكثرة ملاسته له، فالمال قد يكون خيرا، وقد يأتى شرا، ولكن الناس يجدونه خيرا فسماء خيرا.

وبين لشهيد ولشديد تجنيس لاحق، لأن الاختلاف بحرفين غير متقاربين فى المخرج^(١). والآية كناية عن بخله وحبه للمال حبا جما.

﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۝٩﴾

الاستهزاء للإنكار، والفاء معطوفة على فعل مقدر يقتضيه المقام: أى يفعل ما يفعل من القبائح فلا يعلم إذا بعثر.

«بعثر ما فى القبور» أى نثر ما فيها من الموتى وأخرجوا من قبورهم.

(١) نهاية الإيجاز - الرازى ص ١٢٩، والتبيين ص ١٨١، لابن الزمكأن.

ورغم أن في القبور من الموتى آدميين إلا أنه عبر «بما» التي تدل على غير
العاقل؛ لأنهم في هذه الحال بمنزلة غير العقلاء.

﴿ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (١١) ﴾

وميز ما في الصدور من خير وشر، وكشف عما فيها من نفاق ومعصية.
وعبر بالصدور وأراد القلوب مجازاً؛ إذ القلوب تحل في الصدور والصدور
محل لها.

﴿ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ خَبِيرٌ (١٢) ﴾

خبير لا تخفى عليه خافية فيجازيهم بمثل أفعالهم من خير أو شر.
والتعبير هنا بضمير المخاطب للعقلاء، وفي الآية السابقة عبر بما لغير
العقلاء؛ لتفاوتهم في الحالين، فحين كانوا في القبور كانوا كالجمادات بلا عقل،
بخلاف الحالة الثانية، فقد كانت وقت الحشر حين أوقظوا من قبورهم.

* * *

سورة القارعة مكية

(عدد الآيات ١١ آية ، نزلت بعد قريش)

﴿ الْقَارِعَةُ ١ مَا الْقَارِعَةُ ٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ٣ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ٤ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ المنقوشِ ٥ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ٨ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ٩ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ١٠ نَارٌ حَامِيَةٌ ١١ ﴾

هذه السورة فيها وصف ليوم القيامة والتهويل من شأنه، وغرابة أحوال الناس فيها، وتغير الكائنات، وإزلاف المتقين إلى الجنة، ومصير الكافرين إلى النار.

﴿ الْقَارِعَةُ ١ ﴾

القارعة من أسماء القيامة، وسميت بهذا الاسم لأنها تفرع القلوب بالفرع، وتفرع أعداء الدين بالعذاب، وتخرج الأجرام عن أحوالها، وتصير إلى أحوال أخرى. والعرب تقول: قرعتهم القارعة إذا وقع بهم أمر شديد. والقارعة مبتدا وخبرها:

﴿ مَا الْقَارِعَةُ ٢ ﴾

والاستفهام للتعظيم لشأنها، وعبر بالاسم الظاهر وكان حقه الإضممار، فيقول القارعة ما هي؟ زيادة في التهويل والترويع. فشان القارعة عظيم لا تدركه الأفهام ولا تحده العلوم.

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ٣ ﴾

أي ماهي وما كتها؟ وفي ذلك تأكيد لشدة هولها ومزيد فظاعتها، فهي خارجة عن طوق البشر، ولا تستطيع أفهامهم القاصرة أن تحيط بها علما.

﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ٤ ﴾

فصلت هذه الجملة عن الجملة السابقة؛ لأنها بمنزلة الجواب عن سؤال، متى تكون القارعة؟ والجواب: (يوم يكون الناس) أى تقررهم القارعة يوم يكون الناس كالفراش، والفراش: الطير الذى يحوم حول السراج فيتساقط فى النار، فهو حقير ذليل. فيكون الناس فى هذا اليوم كالفراش المبثوث المفرق فى الكثرة والانتشار والتطاير إلى الداعى كتطاير الفراش إلى النار. وهكذا شأن الناس، تختلف جهات حركاتهم من شدة الفزع فيذهب كل واحد إلى جهة غير الجهة التى يذهب إليها غيره، كالفراش فى اختلاف جهاتها إذا طارت، وهو من تشبيه الأمر الحسى بالأمر الحسى.

﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ (٥)﴾

والعهن: الصوف الملون بالألوان المختلفة، المندوف فى تفرق أجزائه وتطايره فى الجو. وهو تشبيه رائع حيث شبه الجبال المتماسكة الأجزاء، الثابتة المستقرة التى لا تؤثر فيها الأنواء، وهى تصوير يوم القيامة كالصوف المندوف الذى يتطاير فى الهواء، لأقل نسمة، وفى ذلك دلالة باهرة على قدرة الله العظيمة.

﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٧)﴾

الموازين: جمع موزون، وهو العمل الجليل الذى له وزن وخطر عند الله، وعبر بالجمع «موازين» وليس بالمفرد «ميزان» لأن لكل حادثة ميزاناً، والحوادث التى قام بها المؤمن جمّة.

(فى عيشة راضية) عبر باسم الفاعل راضية، وهى مسندة إلى ضمير اسم المفعول، أى عيشة مرضية، فهى مجاز عقلى علاقته المفعولية.

والتعبير «بفى» الظرفية يفيد الانغماس الكامل فى هذه المعيشة المرضية، والمعيشة المرضية: السهلة اللينة، التى لا مشقة فيها ولا نصب.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩)﴾

أى رجعت سيئاته على حسناته، أو لم تكن له حسنات أصلاً، «أمّاه هಾಯية» فمسكرته جهنم، وسماها بالأم، لأنه يأوى إليها كما كان يأوى إلى أمه وهو فى حاجة

إليها، وهو أسلوب ينم عن التهكم المرير. أو أن النار تحيط به إحاطة رحم الأم بالولد.

وسميت الجحيم بالهاوية، لأنها يهوى فيها ويستقر في قعرها البعيد، فهي غاية في البعد والعمق.

والتعبير بلفظ الثقل والخفة في ميزان المؤمن والكافر، يشير إلى اشتراكهما في فعل السيئات، إلا أنها قليلة عند المؤمنين، عديدة عند الكافرين.

وهي التعبير بكلمة «هاوية» فيها إشعار بأنه يهوى في جهنم على أم رأسه، زيادة في التقرع وانتظار العذاب المهين.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ (١١)﴾

الاستفهام جاء هنا لتحويل الأمر وتفتظيعه، فالنار خارجة عن كل ما ألفه الناس وعرفوه، فهي نوع من النار لم يدركوه من قبل، ولم يسبق لهم أن اكتسبوا بلفح سعيها قط.

﴿نَارٌ حَامِيَةٌ (١٢)﴾

أي: هي نار حامية، وحذف المبتدأ هنا لضيق المقام عند ذكره، فالمقام مقام عذاب واصطلاء والأمور يدفع بعضها بعضاً، ولا وقت للاسترسال في الحديث^(١).

والسجع في السورة بشقيه. المتوازن والمألوف يكثر في السور المكية زيادة في الإيقاع والتأثير.

* * *

(١) حذف المسند إليه هنا لاعتبار مناسب يهدي إليه العقل الملم والمطبع المستقيم وقيام القرينة شرط فيه .. الإيضاح الخطيب القزويني ص ٦٢ أو كما يقول الطهري حذف المسند إليه للتمويل على أقوى الدلائل من الفعل التبيان ٥٤.

سورة التكاثر مكية

(عدد الآيات ٨ آيات ، نزلت بعد الكوثر)

﴿ أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ ۚ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۚ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ النَّعِيمَ (٨) ﴾

هذه السورة نزلت في قبيلتين من قبائل الأنصار تفاخروا وتكاثروا، تفاخروا بالأحياء، ثم انطلقوا إلى القبور، يشير كل فريق إلى قبر من قبورهم، ويقولون: هل لهم مثل فلان؟ فنزلت السورة.

﴿ أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ ۚ (١) ﴾

أى شغلكم التكاثر بالأموال والأولاد وتفاخرتم بكثرتهم، حتى أدرككم الموت وأنتم على هذه الحال من التفاخر والتكاثر، وقالت كل قبيلة: نحن أوفى سؤددا وأعز عزيزا وأكثر نفرا، وأعظم عدداً، ولم تكتفوا بذلك حيث تكاثرتهم بالأموات وتفاخرتم بهم.

ولم يذكر التنزيل ماذا تكاثروا فيه، وحذف الملهم عنه، تعظيماً ومبالغة لأمره، حتى تذهب فيه النفس كل مذهب، فيدخل فيه جميع ما يحتمله المقام، مثل ألهاكم التكاثر عن ذكر الله، وعن الواجبات الدينية.

وعرف التكاثر «بآل» التى للعهد، العهد المذموم، وهو التكاثر فى الأمور الدنيوية الفانية. كالتفاخر بالمال والجاه والسلطان والأقارب. أما التكاثر بالأمور الدينية فمرغوب محبوب كالتفاخر بالعلم والعمل والأخلاق ونحو ذلك.

﴿ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۚ (٢) ﴾

أى شغلكم التكاثر عن طاعة الله حتى افتخرتم بالأموات. فعبر بزيارة القبور

وأراد ذكر الموتى كناية عنهم، تهكما بهم، لأن زيارة القبور رخص بها لما فيه من اعتبار الموت، ورفض حب الدنيا والتفاخر، ولكنهم عكسوا الأمر، حيث جعلوا زيارة القبور لمزيد من الاستغراق في التفاخر بالكثرة.

وفى الآية إشارة دقيقة إلى أنهم سيبيعثون؛ لأن الزائر مرتحل غير مقيم، والأموات سيرحلون من قبورهم إلى الجنة أو النار.

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٢)﴾

ردع وزجر لهم عن التكاثر والتفاخر بالعدد، وفى ذلك ما فيه من الوعيد الشديد. فليس الأمر على ما أنتم عليه من التكاثر والتفاخر. «تعلمون» العلم هنا بمعنى المعرفة فقدر مفعول واحد، أى تعلمون إنذارى وتخويفى لصنيعكم.

﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣)﴾

تكرار للآية السابقة على وجه التغليف والتأكيد، فهو وعيد بعد وعيد، أراد أن يكرر لهم الردع والإنذار.

والتعبير بثم فيه دلالة على أن الثانى أبلغ من الأول، لما فيه من تأكيد خلا منه الأول وهو التكرار، وثم تدل على البعد الزمنى، فجعل البعد الزمنى بمثابة البعد فى المنزلة، فاستعمال «ثم» يدل على التدرج فى الارتقاء. أو أن المراد بالآية الأولى ما يحدث عن الموت، والثانية ما يحدث عن النشور، وبينهما فاصل زمنى كبير، وعلى هذا فلا تكرار فى الآيتين، واستعملت «ثم» فى معناها من الترتيب والتراخى لتباعد ما بين الموت والنشور.

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٤)﴾

أى لو تعلمون الأمر الذى تصيرون إليه علما يقينيا، كما علمتم الأمور المتيقنة فى حياتكم. فكلا: تكرار للتبويه والتأكيد، وجواب لو محذوف، أى لشغلكم ذلك عن التكاثر.

وحذف جواب «لو» للتهويل حتى يذهب فيه الوهم كل مذهب ممكن.

﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ (٤)

جواب قسم مضمهر أكد به الوعيد .

وهى ذلك تأكيد لرؤيتهم الجحيم رأى العين، وأنها لا تغيب عنهم أصلا، وأنتم تتظنون إليها دوما، وهى ذلك ترهيب شديد من النار ورؤيتها، وإطلاعهم على غلظها وقسوتها، مما يوحى بدوام بقائهم فى النار.

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ (٥)

أى الرؤية التى هى نفس اليقين، من المشاهدة، أى ترونها وأنتم بعيدون عنها وتشاهدونها وأنتم قريبون منها وتدعون إليها دعاء.

﴿ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (٦)

أى تسألون عن نعيم الدنيا الذى ألهاكم عن العمل للأخرة. تسألون عن شبع بطونكم، وبرد شرابكم، وظلال مساكنكم، ولذة نومكم.

ودخلت «أل» على النعيم، للجنس أو الاستغراق، أى يسألون عن كل نعيم ذاقوه فى الدنيا. والسؤال هنا أريد به التخصيص بمن عكف على استيفاء اللذات، وبرم أمور الدين، وغفل عنها.

وهى الآيتين الأولى والثانية سجع، وهى الثالثة والرابعة سجع أيضا، وهى الآيات الثلاث الأخيرة سجع متوازن، لاتفاقها فى الوزن دون الحرف الأخير. هذا الإيقاع الموسيقى الذى يجعل أسلوب الكلام مؤثرا، ومذاقه حلوا.

* * *

سورة العصر مكية

(عدد الآيات ثلاث آيات ، فزلت بعد الشرح)

﴿وَالْعَصْرِ ١﴾

أقسم سبحانه بالعصر، وهو الدهر كله ليلا ونهارا، لما فيه من العبر، التي يحار فيها المرء، وما يلاقيه من مسرة أو هول.

ولما فيه أيضا من دلالة بينة على الصانع القادر. أو أن المراد صلاة العصر، وهي الصلاة الوسطى التي أمرنا سبحانه بالمحافظة عليها.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ ٢﴾

هذا جواب القسم، والخسر: هو النقصان وذهاب المال.

فكل إنسان ينفق عمره في أعمال الدنيا لفي ضلال عن الحق حتى يموت، وسر الوعيد أن التكليف في أداء صلاة العصر أشق؛ لتهافت الناس في تجارتهم ومكاسبهم، واشتغالهم بعماليهم آخر النهار، لبرودة الهواء لاسيما في أرض الحجاز، فالكسب مع السهو عن الصلاة في حكم الخسران لا محالة.

وأل في «الإنسان» تفيد الجنس والاستغراق، وفيها معنى العموم. «لفي خسر» وجود اللام يفيد زيادة التوكيد، فاشتملت هذه الجملة على ثلاثة تأكيدات، إن، واسمية الجملة ودخول اللام.

وتنكير «خسر» للتفخيم، أي في خسران عظيم، أو للتنويع، أي: نوع من الخسران غير ما يتعارفه الناس. والقسم بالشيء، يدل على تعظيم، فإذا أضيف إليه الخسران، اتسم بالخذلان.

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ٣﴾

بعد أن ذكر الإنسان على العموم وقد حاق به الخسران، استثنى منه من كانت صفته الإيمان اليقيني، وجمع معه العمل الصالح والخير الباقي، فربح في تجارته التي لن تبور؛ لأنه عمل للأخرة ولم تشغله أعمال الدنيا.

«وتواصوا بالحق» أي وصى بعضهم بعضاً بالقرآن والعمل به، وعبر بالحق وأراد القرآن، لأن الحق من صفات القرآن ولازم له، فهو مجاز علاقته اللزوم.

«وتواصوا بالصبر» أي بالصبر عن معاصي الله سبحانه، والصبر على فرائضه. وجعل الصبر قريناً للتواصي بالحق، لما فيه من دلالة على عظم قدر الصبر وفخامة شرفه.

والتواصي بالصبر يندرج تحت قوله وتواصوا بالحق، وأفرده بالذكر؛ لإبراز كمال الاعتناء بشأنه، ومزيد شرفه وارتفاع طبيقته.

وانظر إلى تناسق الآيات حيث عطف الفعل الماضي على الماضي.

«أمنوا وعملوا الصالحات» «وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر».

والسجع في الآيات الثلاث حيث ختم كلا منها بالراء المكسورة، بل فيها أيضاً لزوم ما لا يلزم حيث جعل قبل الراء في كل آية، حرفاً ساكناً.

كل هذا يدخل في بديع الكلام واتساقه وحسن تناوله، فيسرى في النفس مسرى النسمة الرقيقة بعد الحرارة اللافتة، فالوعيد القارع أعقبه بالثواب الوافر.

ومن أحسن السجع ما جاء في هذه السورة، لأن الآية الأولى قصيرة، ثم طالت الثانية، وازدادت الثالثة طولاً، لأن السجع إذا استوفى أمده من الأولى، ثم جاءت الثانية دونها صارت كالشيء المبتور^(١).

* * *

(١) الثبيان ص ٥٠٤، ٥٠٥.

سورة الهمزة مكية

(عدد الآيات ٩ آيات، نزلت بعد القيامة)

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ (١) الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (٣) كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (٤) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (٥) نَارُ اللَّهِ الْمَوْقُودَةُ (٦) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (٧) إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّصَدَّدَةٌ (٨) فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (٩)﴾

هذه السورة نزلت في الأخنس بن شريق، أو في الوليد بن المغيرة، والأصح أنها عامة في كل ما يحدث من الهمز واللمز.

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ (١)﴾

الويل: الخزي والعذاب. مرفوع بالابتداء، والذي سوغ الابتداء بالنكرة كونه دعاء عليهم.

والهمزة: الذي يفتاب الرجل في وجهه، واللمزة الذي يفتابه من وراء ظهره، وهما رذيلتان يتضمنان الأذى، وطلب الترفع على الناس لأن صاحبهما لا يجد فضيلة في نفسه، فينسب النقص والرذيلة للغير حتى يظهر فضله عليهم.

وبين همزة ولمزة جناس لاحق لأن الكلمتين اختلفتا في الحرف الأول، مع عدم تقارب المخرج (١).

﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ (٢)﴾

جاءت هذه الجملة دون عطف؛ لأنها بدل من الجملة الأولى، ويمكن أن تحل محلها، فحذفت الواو لشدة اتصال الثانية بالأولى.

وهي هذه الجملة معنى الذم، وهي علة وسبب في الهمز واللمز، فهو معجب بما جمع من المال، وظن أنه الأفضل فيستقص غيره فيهمزه ويلمزه.

(١) التبيان للطيب ص ٤٨٤.

وتكثير لفظة «مالا» للتكثير والتعظيم، أى جمع مالا وفيرا كثيرا وعظيما .
 «وعدده» التشديد يدل على التكثير، وهو جمع الشيء بعد الشيء، وتعديده مرة بعد
 مرة. وحذف ما يتعلق به، إذ المعنى: عدده لنوائب الدهر، أو عدده لمن يرثه قصدا
 للذم على جمع المال، والإمساك به خشية الإنفاق.
 فالبويل والهلاك لكل من تسول له نفسه جمع المال وعدم إنفاقه على
 سبيل الخير.

﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ (٤)

جملة مستأنفة تفيد تقرير الكلام السابق؛ لأنه ظن أن ماله يزيد في عمره،
 ويجعله خالدا لا يموت. وعدل عن الضمير إلى الاسم الظاهر «يحسب أن ماله»
 وسبق ذكر كلمة المال في الآية السابقة «الذى جمع مالا» تقريرا له وتوبيخا لجمع
 ماله وعدم إنفاقه.

وهي ذلك أيضا تعريض بفساد المال الذى جمعه وحافظ عليه بهذه الصورة،
 فالمعمل الصالح هو الذى يخلد صاحبه، وليس المال الذى يجمعه. وعبر بالفعل
 الماضى «أخلده» ولم يعبر بالمضارع فيقول «يخلده» لأنه اعتبر أن ماله قد ضمن له
 الخلود والأمان من الموت؛ بل أصبح فى حكم الأمر المفروغ منه.

﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾ (٥)

«كلا» ردع له عن ذلك الحسبان الباطل.

«لينبذن» جواب قسم محذوف، أى والله ليطرحن فى النار وليلقين فى جوفها،
 والمعنى: لينبذن ماله أو بدنه أو روحه، فحذف المفعول، تهويلا وتفظيما، ولكى
 تذهب فيه النفس كل مذهب فتتخيل ما حذف من إلقاء ونبذ.

والحطمة: النار، وسميت حطمة، لأنها تحطم كل ما يلقى فيها وتهشمه. فقد
 كان يهزم ويلمز ويحطم أعراض الناس، فالنبذ فى الحطمة جزاء وفاقا لهمزه ولمزه.
 وهى «ينبذن» استعارة، حيث شبههم بحصيات تافهة القدر يأخذهن المرء

فى كفه فيطرحهن فى البحر، بجامع الحقارة والمهانة فى كل من المستعار منه والمستعار له.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَطْمَةُ (٥)﴾

هذا الاستفهام للتحويل والتفطيع حتى كأنها شىء لا يخطر على البال، ولا تدركه الأفهام.

﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (٦)﴾

أى هى نار الله، والمبتدأ محذوف اختصاراً للعلم به.

وإضافة النار إلى الله لتفخيمها وأنها ليست مثل النيران المعتادة التى ألفها الناس، وإنما هى نار خاصة بالعذاب الأخرى لا تضارعها نار أخرى.

﴿الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَقْنَدَةِ (٧)﴾

أى تغشى القلوب وتصل إلى الأقنعة، فالقؤاد وسط القلب، أى أن النار تهشم العظم وتآكل اللحم، فتصل إلى الصدور وتستولى على الأقنعة.

وخص الأقنعة بالذكر مع أنها تغشى جميع أعضاء الجسم، لأن القؤاد محل العقائد الزائفة، فتعلم ما يستحقه كل منهم من العذاب، فهو تعبير مجازى قصد به الجزء والخصوص. كما أن القؤاد الطف ما فى الجسد وأشد تألماً، فإذا اطلعت النار على القؤاد كان من باب أولى اطلاعها على جميع البدن.

﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّصَدَّةٌ (٨)﴾

أى مطبقة أبوابها عليهم تأكيداً لiasهم من الهروب، ويقينهم بالحبس الأبدى فيتلظون بنارها، وهذه الأبواب قد شددت بأوتاك من حديد فلا يفتح لهم باب، ولا تدخل عليهم روح. وقدم المجرور على الخبر «عليهم» للاهتمام بأمرهم، وشدة ما يلقون من العذاب.

﴿فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (٩)﴾

أى هم فى عمد، فالمبتدأ محذوف على سبيل الاختصار، والعمد: الأغلال
والقيود وهى من وسائل التعذيب فى جهنم.
ووصف العمد بأنها ممددة لبيان غلظتها وقسوتها، فالعمد الممددة، هى
المطولة، ولاشك أنها أرسخ وأقوى من القصيرة.

* * *

سورة الفيل مكية

(عدد الآيات ٥ آيات ، نزلت بعد الكافرون)

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (٥) ﴾

قدم أبرهة الأشرم من اليمن يريد غزو مكة، وهدم بيت الله الحرام، وسمى الأشرم، لأنه ضرب برمح على جبهته فشربت حاجبه وأنفه وعينه وشفتيه، فلذلك سمي أبرهة الأشرم.

فأرسل الله عليه طيرا أبابيل أى مجتمعة، لها خراطيم تحمل حصاة فى منقارها وحصاتين فى رجليها، ترسل الواحدة على رأس الرجل فيتساقط لحمه ويسيل ودمه ويبقى عظاما خاوية لا لحم فيها ولا جلد ولا دم.

هذه هى قصة أصحاب الفيل ذكرناها إجمالاً وسنذكرها تفصيلاً بعون الله. والمقصود من ذكر القصة تسلية رسول الله ﷺ بأن جزاء من يظلمه جزاء من قصد الكعبة وأراد بها شراً، فهى بمثابة التهديد لمن يكفر بمحمد وينأى دعوته.

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) ﴾

أى قد علمت يا محمد، فالخطاب لرسول الله، أو علم الناس الموجودين فى عصره ومن بعدهم، فيكون الخطاب عاماً لكل من يصلح له الخطاب. ما بلغكم بطريق التواتر من قصة أصحاب الفيل وماذا فعل الله بهم فما لكم لا تؤمنون.

فالهزمة فى قوله «ألم تره للاستفهام التقريرى، كأنهم قالوا بلى رأينا وعلمنا ما فعل ربنا بأصحاب الفيل. أو المراد بالاستفهام تعجب النبى ﷺ بما فعله الله بهم عندما قصدوا تخريب الكعبة.

وكيف استفهام تقريرى أيضاً، أى لقد خبرت أمرهم ووقفت على حقيقته،

وقد كان ذلك حقيقة لا جدال فيها ولا شك في وقوعها، ولذا عبر بالفعل الماضي «كيف فعل».

وأضاف لفظ الرب لرسوله تشريفاً لنبيه محمد ﷺ (ريك) وإضافة الأصحاب إلى القيل، تعييناً لهم حيث عرفوا بالفيل لأنه كان ذا هيئة جسيمة غريبة عليهم حيث كانوا يروون أنه ذو لون أبيض على خلاف لون الفيلة.

﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٦)﴾

والكيد: إرادة المضرة بالغير؛ لأنهم أرادوا أن يكيدوا قريشا بالسبي والقتل، ويكيدوا للبيت بالتخريب والهدم. فجعل الله كيدهم في ضلال حيث لم يستطيعوا أن يلحقوا ضرراً بالكعبة بيت الله الحرام.

فالهزة هنا (ألم يجعل) للتقرير، كأنه قال قد جعل كيدهم في ضلال.

وانظر إلى حرف الجر الذي يفيد الظرفية ودخوله على ما لا يصلح دخولها عليه إلا على سبيل المجاز، لأن الضلال أمر معنوي لاحسنى فكيف يتأتى دخول الظرف عليه؟

دخل الظرف على المعنوى، بتشبيهه بالأمر الحسى حتى يصح دخول الظرف فيه، فكان الضلال قد استغرق كيدهم واحتواء من كل جانب، وأصبح الكيد غارقاً في ضلالهم.

﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٧)﴾

معطوف على الجملة السابقة: «ألم يجعل كيدهم في تضليل»، فكان المعنى عدم إنكار إرسال الطير عليهم، بل تقريره وتأكيد حدوثه.

(عليهم) تفيد وقوع الطير عليهم من فوقهم، فكان عنصر المفاجأة عليهم عنيفاً قوياً لم يستطيعوا أن يتهياؤا له، على فرض إمكان قدرتهم على الاستعداد لمواجهته. ونكر «طيراً» ليفيد كثرتها وقوتها وعظم شأنها.

و(أبابيل) أى جماعات تأتى من جهات متفرقة فوجاً بعد فوج يتبع بعضها بعضاً. وأبابيل جمع لا واحد له من لفظه كما يقول الفراء والواحدى. وهى طير

سود جاءت من قبل السماء فوجا بعد فوج وفى منقار كل طائر حجر أكبر من الحمصة، وفى رجليها حجران لا يصيب الحجر أحداً إلا حطمه.

وهنا تشبيه فيه شئ من الخفاء، لأن الأبايل هى الحزم الكبيرة، واحدها حزمة، شبهت بها الجماعة من الطير فى تضامها واقتراب بعضها من بعض وتجمعها هى صعيد واحد.

﴿ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (٤) ﴾

صفة أخرى للطير، والسجّيل: هى حجارة من طين طيخت بنار جهنم مكتوب فيها أسماء القوم الهالكين.

أو من «سجّيل» من السماء، وهى الحجارة التى نزلت على قوم لوط.

كانت ترميهم بالحجارة، فإذا أصاب أحدهم حجر منها أصيب بالجدرى.

﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (٥) ﴾

شبه القرآن حالة أصحاب القيل إذا أصابهم حجر من الطير حيث جعلهم كروث البهائم الذى تلفظه من أسفل. فشبه تقطع أوصالهم بتفريق أجزائه. وفى هذا من الذم لهم وتحقيرهم الشأ والبعد.

و«العصف المأكول» هو ورق الزرع الذى دبت فيه الديدان، فسمى عصفاً؛ لأن شأنه أن يقطع فتعصف به الرياح، فتذهب به فى كل اتجاه.

أو كعصف مأكول الحب، شبههم بزرع أكل حبه، فى ذهاب أرواحهم وبقاء أجسادهم، وتشويه أحوالهم.

والمتراد بالعصف المأكول الكناية حيث عبر بلفظة المأكول وأراد بها ما تسترجعه البهائم إذا عافت طعامها، مراعاة لحسن الأدب فى الحديث واستهجاناً لذكر كلمة الرجيع، فدأب القرآن العدول عن اللفظ الهابط. إلى اللفظ الذى لا يخذش الطبع السليم.

* * *

سورة قريش مكية

(عدد الآيات ٤ آيات، نزلت بعد التين)

﴿لَا إِلَافَ قُرَيْشٍ (١) إِلَّا إِلَافُهُمْ رَحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤)﴾

أول هذه السورة متصل بآخر سورة الفيل التي قبلها، «فجعلهم كعصف مأكول» أى جعل جيش أبرهة كروث البهائم فى تمزيقه وجعله نتفا صغيرة. أو متصلة بقوله تعالى من هذه السورة «فليعبدوا رب هذا البيت».

والمعنى: أن نعم الله تعالى على أهل مكة عديدة غير محصورة؛ فإن لم يعبدوه لساثر نعمه، حيث أهلك أهل الفيل، فليعبدوه لهذه النعمة الجليلة، هى نعمة هذا البيت العظيم الذى يعيشون حوله وفى كتفه.

تقول ألفت الشيء: لزمته ودمت عليه، وضد الإيلاف: الإيحاء. فالفاس إذا تسامعوا بإهلاك أبرهة الحبشى وجيشه، والحفاظ على بيت الله الحرام دون أن يستطيعوا هدمه كما أرادوا، تهيّبوا لقريش زيادة تهيّب، واحترموهم فضل احترام، فلا يجترئ عليهم أحد، وعندئذ ينتظم لهم الأمن فى رحلة الشتاء ورحلة الصيف.

وقريش هم ولد النضر بن كنانة، فكل من ولد النضر فهو قريشى، ومن لم يلد النضر فليس بقريشى.

وقريش تصغير قرش، وهى السمكة المتوحشة المعروفة بسمك القرش، وتصغير قريش جاء للتعظيم؛ لأنها تأكل ولا تؤكل لقلّة عددهم، كسمكة القرش رغم صغر حجمها فهى قوية مفترسة لا يقرب منها أحد إلا افترسته ونهشت لحمه.

أو أن قريشا تفيد كما فى القاموس معنى التجمع من هنا وهناك، وسميت بهذا الاسم لتجمعهم حول البيت الحرام.

وأتى بقوله «إيلافهم» عقب «إيلاف قريش» دون عطف؛ لأن الثانية بدل من الآية الأولى، وتقوم مقامها، فلا معنى لوجود حرف العطف.

﴿رَحَلَةُ الشَّاءِ وَالصَّيْفِ (٢)﴾

ورحلة منصوب على المفعول به. وأصل الرحلة ركوب الناقة القوية السريعة، ثم أطلقت عن هذا التقيد، واستعملت في كل سير وارتحال، واشتهر بذلك.

وأفرد الرحلة مع أنه أراد رحلتي الشتاء والصيف، إما لأمن الليس. أو المراد بالرحلة اسم الجنس، وهو يطلق على المفرد والمثنى والجمع.

وأضاف الرحلة مرة إلى الشتاء وأخرى للصيف إضافة مجازية عقلية؛ لأن الرحلة تكون في زمن الشتاء وزمن الصيف.

وكانت رحلة الشتاء إلى اليمن لحرارة جوها، ورحلة الصيف إلى الشام لبرودة طقسها وارتفاع أرضها.

﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣)﴾

المراد بالبيت، الكعبة وهي البيت الحرام، وعرفهم سبحانه بأنه رب هذا البيت؛ لأنهم كانوا يعبدون أوثانهم، فميز نفسه عنها، ولأنهم تشرفوا بهذا البيت على سائر العرب.

وأمر بالعبادة، عبادة الرب وليست عبادة غيره من صنم أو وثن، أو حجر، أمر تخصيص.

وأشار إلى البيت الحرام باسم الإشارة «هذا البيت»، أي أن هذا البيت العظيم المائل أمامكم لا تخطئه العين، ولا يغل عنه القلب، فأزاد بالإشارة التعظيم والتبجيل للبيت الحرام.

﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤)﴾

أي أطعمهم بدعوة إبراهيم عليه السلام حيث قال: «وارزق أهله من الثمرات» البقرة ١٢٦ وقوله: «رب اجعل هذا البلد آمناً» البقرة ١٢٦ فأطعمهم الله بعد جوع، وآمنهم بعد خوف، فألفوا الرحلة وكان ذلك من نعمة الله عليهم.

«من جوع» نكر «جوع» أى كانوا فى جوع شديد، لتعظيم ذلك الجوع عليهم حتى إنهم لم يكونوا يتحملونه، فتجاههم من الجوع بسبب ما منحهم من طعام، وما أعطاهم من رزق، وهذا سر التكثير.

ولفظه «أطعم» تقيد الماضى، وإطعام قريش وأهل الحرم مستمر على الدوام، ولكن التعبير بالماضى للدلالة على أن الإطعام أمر متحقق لا يتخلف أبداً.

«وآمنهم من خوف» أى من خوف عظيم كان يملأ شعابهم من إغارة القوم عليهم، كما حدث مع أبرهة وجيشه، فلم يلحقهم الخوف بعد إهلاكهم. والتعبير بالفعل الماضى «آمنهم» للدلالة على استمرار الأمن ودوامه مثل أطعمهم.

وهكذا أمرهم الله سبحانه بأن يألفوا عبادة رب هذا البيت كإلفهم رحلة الشتاء والصيف.

* * *

سورة الماعون مدنية

(عدد الآيات ٧ آيات، نزلت بعد التكاثر)

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ ۚ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ۖ وَلَا يُحِضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۚ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۚ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۚ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۚ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ۚ ﴾

هذه السورة نزلت في أبي جهل، كان وصياً ليتيم، فجاء عريانا يسأله حقه الذي عليه، فدفعه دفعا شنيعا، فأيس الصبي من أخذ ماله، فقال له أكابر قريش: قل لحمد يشفع لك، أرادوا بذلك الاستهزاء برسول الله ﷺ، وهو عليه السلام لم يكن يرد محتاجا، فذهب معه إلى أبي جهل، فقام أبو جهل وبذل المال لليتيم، فغيرته قريش وقالوا: أصبوت - خرجت عن ديننا واتبعت دين محمد - فقال: لا والله ما صبوت، ولكن رأيت عن يمينه وعن يساره حرية خفت إن لم أجبه يطعنها في.

وإن كان المراد بالآية كل من كذب بالدين، ومن شأنه أذية الضعيف، ودفعه بعنف وخشونة، كان الأمر عاما واستعملت «الذي» مجازا لقصد العموم والشمول.

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ ۚ ﴾

الخطاب لرسول الله، أو لكل من يصلح له الخطاب.

والاستفهام في «أرأيت» خرج عن حقيقة معناه إلى معنى آخر هو قصد التعجب من حال من يكذب بالدين.

والرؤية هنا ليست بصرية وإنما هي بمعنى المعرفة، وفي الكلام حذف قصد به الاختصار والإيجاز، والمعنى: أرأيت الذي يكذب بالدين أمصيب هو أم مخطئ.

واستعمال الذي جاء على سبيل الكناية عن أبي جهل.

﴿ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ۚ ﴾

الفاء هنا جواب شرط مقدر، أى إن تأملتَه أو طلبتَه فذلك الذى الذى يدع
اليقيم.

أو جوابا لسؤال مقدر: من هو المكذب بالدين؟ ذلك يدع اليقيم، وسواء أكان
جواب شرط مقدرًا، أو جوابا لسؤال مقدر ففى الكلام إيجاز واختصار.
أو: هو الذى يكذب بالدين، وحُذف المبتدأ «هو» اختصارًا للكلام.
و«ذلك» عبر بالأداة التى تفيد البعد، ذمًا له ويعدا لدرجته فى الإهانة
والطرد^(١)

«يدع اليقيم» كلمة يدع فيها من العنف والجفوة أكثر من كلمة يدفع اليقيم،
ولذا أثر القرآن التعبير بها، دلالة على شدة الفعل وسوء الموقف.
والحظ الاختصار فى الآية، ﴿وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾، أى لا يحض
نفسه ولا أهله ولا غيرهم عن الإطعام؛ بخلاف المال وتكذيبًا بالجزاء، لاستحكام
غريزة البخل فيه.

وثمة حذف آخر فى قوله تعالى «ولا يحض على طعام المسكين»، أى لا يحض
ولا يحث على بذل الطعام للمسكين، وهو مفهوم من السياق ويستلزمه المعنى
المراد.

وفى المدول عن الإطعام إلى الطعام وإضافته للمسكين، يدل على أن
للمسكين حقًا فى مال الفنى، فإذا منعه من الطعام فقد منعه عن حقه، وفى ذلك
نهاية البخل وقساوة الطبع.

«ولا يحض على طعام المسكين» فى ترك الحض كناية عن البخل ومنع
المعروف عن المساكين، مما يذم به المرء ويوبخ عليه.

﴿قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (١) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥)﴾

الفاء جواب لشرط محذوف كأنه قيل: إذا كان ما ذكر من عدم المبالاة

(١) التبيان ص ٧٠.

بالمسكين واليتيم فويل للمصلين... والحذف إيجاز واختصار والويل: العذاب والهلاك للمصلين، ليس مطلق المصلين؛ بل وصفهم بأنهم ساهون عن صلاتهم سهو ترك لها وقلة التفات، كفعل المنافقين وسهو المؤمنين، فهو مجاز بالإطلاق والتقيد. ولا يصح الوقوف على قوله فويل للمصلين؛ لأن ذلك يؤدي إلى لبس في المعنى وخروج عن الشرع، فالمصلون لاهلاك لهم ولا عذاب إلا من سها عن الصلاة وتركها.

أما السهو في الصلاة كالغيث باللحية والثياب والانشغال بسبب وسوسة الشيطان فلا يمكن التحرج منه، وكذلك التأثؤب، والالتفات هنا وهناك.

ومن ثم يتضح الفرق بين قوله: الذين هم عن صلاتهم ساهون، وبين قولهم الذين هم في صلاتهم ساهون. فالأولى ترك للصلاة، والثانية غفلة أثناء الصلاة، وقد صدر عن رسول الله ﷺ السهو في الصلاة كما حدث يوم الخندق حين سها عن صلاة العصر قال: شغلونا عن صلاة العصر ملأ الله قلوبهم نارا، وأيضا حين صلى الظهر ركعتين، فتهبه الصديق أبو بكر لذلك فقام وأضاف إليهما ركعتين، وسهو الرسول ليس كسهو سائر الخلق، فهو دائم الاستفراق في الصلاة، منجذب إليها دوما، وأي الخلق مثل رسول الله؟

وقد نزلت هذه الآيات في المنافقين الذين لا يرجون بصلاتهم ثوابا إن صلوا، ولا يخافون عليها عقابا إن تركوا، فهم عنها غافلون حتى يذهب وقتها.

وجاءت جملة «الذين هم عن صلاتهم ساهون» بعد الجملة الأولى «فويل للمصلين»، دون عطف؛ لأن الثانية صفة للأولى والصفة لا تفصل عن الموصوف بمعطف أو غيره، وكأنما هما جملة واحدة لا جملتان؛ لأن الفصل يدعو إلى اللبس أو التعقيد.

﴿الَّذِينَ هُمْ بِرَأْوَنَ﴾

يرأون الناس بصلاتهم إن صلوا ليثبوا عليهم، أو يؤخرون الصلاة عن وقتها. والمرأاة: النفاق الذي لا يرى بالعين، كما جاء في أول السورة: (أرايت الذي يكذب بالدين) فهو - إذن - استعمال مجازي، فخرج بالكلام عن مقتضى الظاهر.

(وهم يراءون) بدأ بالاسم وأسند إليه الفعل، وأسند الفعل مرة أخرى لضمير المبتدأ، فتكرر إسناد الفعل، مما يدل على التقوية والتأكيد.

وكرر «الذين هم» في الآيتين ولم يقتصر على مرة واحدة، ولولا هذا التكرار لعطف الفعل على الاسم «يراءون على ساهون» وهو لا يحسن. واجتناب الراء صعب؛ لأنه يحمل صاحبه أكثر مما يحتمل، فهو أخفى من ديبب النملة السوداء، في الليلة المظلمة، على المسح الأسود، مما يتكلفه المرائي ويشغل نفسه به.

وقال «يراءون» ولم يقل ينافقون؛ لأن الفرق بينهما واضح. فالمنافق يبطن الكفر ويظهر الإيمان، والمرائي يظهر زيادة الخشوع والصلاح حتى يعتقد من يراه أنه من أهل التقوى والصلاح. والقرآن يضع كل كلمة في موضعها الدقيق ومكانها المناسب لها.

﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧)﴾

جاءت هذه الجملة معطوفة على ما قبلها من عطف الفعل على الفعل وكل منهما مضارع، فالتماثل بينهما واضح مما حسن العطف وزاده خلاقة.

والماعون من المعن، وهو الشيء القليل، وسميت الزكاة ماعونا، لقلة نسبتها الخارجة من المال فهي ربع العشر، وهو قليل من كثير. والماعون بلفظ الأحياء: المال. والمراد يمتنعون زكاة أموالهم.

والماعون في الجاهلية: كل ما فيه منفعة ويتداوله الناس فيما بينهم. مثل الأكواب والقدرور والملح والماء والغريال والكبريت ونحو ذلك.

وعرف الماعون «بال» لأنه في عرف الناس شيء تافه حقير لا يصح منعه عن طلبه.

وإن كان المراد زكاة المال، فهي ضئيلة بالإضافة إلى المال، ولا تنقص منه شيئا، فما نقص مال من صدقة.

* * *

سورة الكوثر مكية

(عدد الآيات ٣ آيات، نزلت بعد العاديات)

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾

يقول ابن عباس رضى الله عنه: نزلت هذه السورة فى العاصى بن وائل، فكان إذا ذكر الرسول يقول: دعوه فإنه رجل أبتر لا عقب له، فإذا هلك انقطع ذكره، ولكن الله سرى عن رسوله، فأخبر عن عدوه بأنه هو البغيض الذى لا عقب له، ولا نسل لديه، أما أنت يا محمد فتبقى ذريتك وحسن صيتك وأثار فضلك إلى يوم القيامة، وذلك: أنهم زعموا حين مات أبناؤه عليه السلام القاسم وعبد الله بمكة، وإبراهيم بالمدينة أن محمدا ينقطع ذكره إذا انقطع عمره؛ لفقدان نسله، فنبه الله أن الذى ينقطع ذكره هو الذى يشنؤه، أما هو فكما وصفه الله برفع ذكره، وعلو منزلته، ويبقى نسله على مر الأزمان فهو راع للمؤمنين، والمؤمنون أنصاره إلى يوم الدين.

وسميت السورة بالكوثر؛ لذكر لفظ الكوثر فيها.

والكوثر نهر يجرى بالجنة، أو النبوة أو القرآن، أو المعجزات، والأصح أنه نهر يجرى فى الجنة؛ لقول الرسول ﷺ «أعطيت الكوثر فإذا هو نهر يجرى ولم يشق شقا، وإذا حاهته قباب اللؤلؤ، فضربت بيدي فى تربيته، فإذا مسك أذفر وإذا حصباؤه اللؤلؤ» مسند أحمد.

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾﴾

جعل خبر إن فعلا وهو أعطيتك، وبني الفعل على المبتدأ، فقدم الفاعل - الذى صار اسما لإن - على الفعل، والتقديم يفيد التوكيد. فتكرر التأكيد مرة بجعل الفعل خبرا وأخرى بإسناده للفاعل. وتكرار الإسناد يزيد الكلام قوة وتأكيذاً. وجمع

ضمير المتكلم فقال : إنا أعطيناك، ولم يقل: إني أعطيتك، لما في الجمع من عظمة الربوبية.

وأنه صدر الآية بالتوكيد، وهو يجرى مجرى القسم، فكانه أقسم بذاته أن الإعطاء واقع لا محالة.

وأنه أورد الفعل بلفظ الماضي «أعطيناك» ولم يورد بلفظ الاستقبال، دلالة لتحقيق وقوع الفعل، ولا ارتياب في وقوعه، فالتوقع من سيب الكريم في حكم الواقع الحاصل.

وجاء بالموصوف محذوفا - أي نهر كوثر، بمعنى نهر مفرط في الكثرة، ولم يذكره لأن في ذكر الموصوف تعيين وتحديد له، فحذفه ليدل على الإبهام والعموم. وأتى بالكوثر معرّفاً بال، ليعطى معنى الكثرة كاملاً شاملاً وفي الآية تفخيم لما أولاه الله من النعم^(١).

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾ (٢)

الفاء في فصل فيها معنى السببية؛ لأنه جعل الإنعام الكثير سبباً للقيام بشكر الله المنعم وعبادته.

وجعل سبباً لقلة المبالاة بقول العاص بن وائل الذي عير النبي ﷺ حين مات ابنه القاسم فقال: إن محمداً صنبور، أي أقطع لا ولد له، فشق ذلك على رسول الله ﷺ فأنزل السورة. «لربك» فيها تعريض بالكافرين ويدين العاص بن وائل وأشباهه ممن كانت عبادته ونحره لغير الله، فأراد الله سبحانه من الرسول أن يخلص عبادته لوجهه الكريم.

وأن الصلاة والنحر عبادتان، والأعمال البدنية تتمثل في الصلاة، والأموال المالية تتجلى في النحر.

وأن الرسول قد اختص بالصلاة، حيث جعلت قرّة عينه في الصلاة، كما

(١) التبيان ص ٦٢.

اختص بنحر البدن التي كانت همته فيها قوية، وحبها لها عظيم. ومن البديع في الآية مراعاة السجع؛ إذ جاء مطبوعا غير متكلف ولا مصنوع.

وقال بالاسم الظاهر «لريك» ولم يقل بالضمير «فصل لنا» على سبيل الالتفات من التكلم إلى الغيبة؛ لما في ذلك من إظهار تكبرياء شأن الله، وإبانة لعزة سلطانه، وفيها تعريض عن ترك عبادة ربه، وعبد مخلوقا من خلق الله.

وفيه أيضا (فصل لريك وانحر) أي انحر له فحذف اقتصارا واكتفاء بما ذكر قبله، والنحر في اللبنة كالذبح في الحلق.

﴿إِنْ شَأْنُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾

هذه الآية كالسبب والعلّة للآية قبلها وكأنه قال: ولأى معنى أضل ما أمرت به؟ فقال: إن شأنك هو الأبتَر.

وأنه ذكر العاص بن وائل بصفته لا باسمه، تحقيرا لشأنه ولكي يتناول كل من كان على هذه الحال وتلك الصفة من الشائئين الكائدين لدين الحق.

وأنه صدر الجملة بحرف التوكيد، ولم ينطق إلا بالشأن وما فيه من بغى وحسد، وبالبغضاء وما فيها من غيظ ومنع، ولذا وصفه الله بما ينبئ عن المقت الشديد.

وعرف الأبتَر بأل، ليدل على كمال البتر والقطع لهذا العدو الشائن المغيظ المحنق، كأنه هو الموصوف بالأبتَر، أي بهذا الوصف الذي وصف به رسول الله ﷺ.

وفصل بين اسم إن وخبرها بضمير الفصل الذي يدل على معنى القصر قصفة الأبتَر لازمة لذلك الشائن وحده دون غيره.

هذه السورة مشحونة بجلائل النكت البلاغية الخالية من التصنع والتكلف، ومعانيها على قصرها غزيرة، وهي معدودة من الإيجاز المعجز.

* * *

سورة الكافرون مكية

(عدد الآيات ٦ آيات، نزلت بعد الماعون)

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ٢ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ٤ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ٦﴾

سبب نزول هذه السورة أن الكافرين سألوا رسول الله ﷺ أن يعبد آلهم سنة، ويعبدوا إلهه سنة، فأمره سبحانه أن يقول لهم آيات السورة. وهناك روايات أخرى بأسلوب آخر ولكنها جميعا لا تخرج عن هذا المعنى.

افتتحت السورة بفعل الأمر قل، والرسول إذا أمر بشيء لزمته الطاعة.

وعقب بالنداء لتبهيهم إلى ما يقول.

وناداهم بيا التي تفيد البعد، وهم قرييون منه، فكان حقه أن يستعمل الأداة التي تفيد القرب، ولكنه استعمل الأداة التي تفيد البعد، نظرا لبعدهم عن القلب، وبعد مكانتهم عن الرسول والرسالة.

ووصفهم بأنهم كافرون، وهو الوصف الذي يستردلون به في بلدتهم ومحل عزهم وشوكتهم.

واستعمل جمع المذكر وليس جمع التذكير الذي يفيد الكثرة، فقال (الكافرون) دلالة على حقارتهم وذلتهم، وهم كفرة مخصوصة كالوليد بن المغيرة، وأبى جهل، والمعاص بن وائل، وأمية بن خلف، وغيرهم ممن لهم مكانة في قريش.

«فالكافرون» يفيد جنس الكافرين جميعا، ولكن المراد بها أفراد مخصوصون، من سبق عليه القول منهم بأنه يموت كافرا. فعبّر بالعموم وأراد الخصوص.

﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ٢﴾

لا حرف نفى لا يدخل غالبا إلا على فعل مضارع يفيد الاستقبال، أى: لا أقبل فى المستقبل ما تطلبونه منى من عبادة آلهمكم، وتعبدون يفيد استحضر صورة ما يعبدون ويمثلونه أمامهم ويذاومون على عبادته، فنفى عن نفسه عبادة ما يعبدون.

﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ (٢٧)

دخلت لا على جملة اسمية، وهى تفيد الدوام والثبوت فى جميع الأوقات، فإذا دخل على الاسمىة حرف النفى، نفى عنها ما دلت عليه من الدوام والثبوت فيكون المعنى، أنتم لا تعبدون فى الماضى أو الحاضر أو المستقبل، ما أعبد؛ لأنهم كانوا يعبدون الأصنام دون أن يتخلوا عن عبادتهم لها فى أى وقت من الأوقات. وعبر باسم الفاعل «عابدون» للدلالة على أنهم كانوا يمارسون عبادة الأصنام وقت نزول السورة.

وعبر بالمضارع «أعبد» لاستحضار صورة عبادته للواحد القهار الذى لا يعبد سواه.

وحذف المفعول به من قوله (ما أعبد) أى ما أعبد، لتعينه بالذكر، ولأنه أجل من أن يخفى، وأعظم من أى يغيب.

﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾ (٢٨)

ولست فى الحال بعابد معبودكم، ولا أنتم فى الحال بعابدى معبودى. يقول الأخفش والفراء: لا أعبد فى الحال أو الاستقبال ما تعبدون. ولا أنتم عابدون الآن أو فى المستقبل ما أعبد.

فالسورة ليس فيها تكرار، لاختلاف معنى كل آية عن أختها، «وليس العبرة بتكرار اللفظ، وإنما العبرة بالأغراض والمقاصد»^(١).

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (٢٩)

(١) نهاية الإيجاز - الرازى ص ٣٩٠.

«لكم دينكم» تقرير لقوله تعالى «لا أعبد ما تعبدون»، وقوله «ولا أنا عابد ما عبدتم». يريد أن يؤكد نفى عبادته لأللهتهم.

وقوله «ولى دين» تقرير وتأكيد لمضمون قوله تعالى «ولا أنتم عابدون ما أعبد» يريد أن يؤكد نفى عبادتهم للواحد القهار.

وقدم الجار والمجرور فى الجملة «لكم دينكم، ولى دين» أى أن دينكم مقصور عليكم لا يتعدى ذلك إلى حصوله منى كما تطمعون وتتمنون أن أتبعكم فيه، فهذا من المحال.

«ولى دين» ليفيد أن دينه التوحيد مقصور عليه لا يتجاوزه إلى حصوله منكم فهيئات لما جبلوا عليه من قسوة القلب وغلظ الطبع، فهم لن يؤمنوا به، لأن الله كتب عليهم الكفر فى الأزل.^(١)

فأنا لا أعبد آللهتهم، وأنتم لن تعبدوا إلهى. وأنتم كاهنرون لأنكم تعبدون الأصنام والطواغيت. ولن تعبدوا الله الواحد القهار الذى قهر بوحده كل كثره وتجمع.

ولى دينى وهو الإيمان بالله والكفر بالطاغوت.

وواضح أن الآيات على تشابهها ليس فيها تكرار. لأنه لكل آية معنى لا يتفق مع غيرها من الآيات الأخر. وإنما جاءت الآيات على هذه الكيفية للتأكيد على قطع اطماع الكفار أن يجيبهم الرسول إلى ما سألوه من عبادة آللهتهم.

* * *

(١) تقدم السند وهو الجار والمجرور لتخصيص السند إليه، أى أن دينكم خاص بكم لا يتجاوزكم إلى ودينى خاص بى. لا يتجاوزنى إليكم، التبيان ص ٩٥.

سورة النصر مدنية

(عدد الآيات ٣ آيات، نزلت بعد التوبة)

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ

رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝﴾

هذه السورة نزلت على رسول الله ﷺ أوسط أيام التشريق بمنى في حجة الوداع.

وعندما نزلت قال الرسول ﷺ: نعتيت إلى نفس وقرب إلى أجلي.

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝﴾

إذا جاء نصر الله وعونه على من عاداك من قريش وغيرهم، فإذا لما يستقبل من الزمان، وإذا ذكر المستقبل وتحقق كان ذلك معجزة.

ودخلت إذا على الفعل الماضي جاء، لتفيد تحقق وقوع النصر. وعبر بالمجيء مجازاً؛ لأن النصر لا يحدث منه فعل المجيء وكذا الفتح، إيذاناً بأن كلا منهما متوجه إليه ﷺ.

وأضاف النصر لله سبحانه باعتبار أنه محقق للنصر، وإلا فإن النصر كان بإصرار المسلمين، وهو أمر حادث أحدثه الله فيهم.

والفرق بين النصر والفتح، أن الفتح فيه كشف لما انغلق من الأمور، والنصر سبب للفتح، ولذا بدأ بذكر النصر، أي السبب وعطف عليه الفتح وهو نتيجة النصر، كما يتقدم السبب على المسبب.

والمراد بالنصر كمال الدين، وبالفتح إقبال الدنيا وتمام النعمة. وكمال الدين يكون بظهر الأعداء، وتمام النعمة يكون باقتحام دورهم وخضوعهم.

والمراد بالفتح فتح مكة فيكون خاصا، وإذا كان المراد مطلق الفتح، يكون عاما. والآية لم تذكر العموم ولا الخصوص، حتى تذهب فيه النفس كل مذهب.

﴿وَرَأَيْتِ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝﴾

أى أبصرت الناس من عرب وعجم وغيرهم يدخلون فى دين الله الذى بعثك به جماعات جماعات أفواجا بعد فوج.

وإن أراد بالناس أهل اليمن، فقد دخل منهم سبعمائة إنسان فى الإسلام دفعة واحدة، إن أراد هذا المعنى فكلمة الناس مجاز مرسل علاقته العموم؛ لأن الناس أكثر من أهل اليمن.

وإن أراد بالناس معناها المتعارف عليه وهو الخلق جميعا، فكلمة الناس تطلق على من دخل فى دين الله وحدهم، فتكون مجازا لعلاقة الخصوص.

«يدخلون فى دين الله» فدخلوا الحرف «فى» على دين الله، ودين الله لا يصلح للظرفية، لأنه ليس وعاء للدخول حقيقة، كما تقول المال فى الكيس، وإنما هو شئ معنوى لا يصلح أن يكون ظرفا، فاستعمال فى هنا على سبيل الاستعارة التيعية.

«أفواجا» تدل على الكثرة الهائلة التى كانت تدخل فى دين الله، بعد أن كانوا يدخلون فردا فردا أو اثنين اثنين، فصارت القبيلة تدخل بأسرها فى الإسلام كأهل مكة، والطائف، واليمن، وهوازن.

ويحتمل فى قوله «ورأيت الناس» أن يكون الخطاب عاما لكل مؤمن، وليس الرسول فحسب فتكون مجازا يفيد العموم.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝﴾

«فسبح بحمد ربك» جواب إذا، والتسبيح مجاز لأنه يفيد التعجب، بعلاقة السببية، فإن من يرى أمرا عجيبا يقول سبحان الله، تنزيها لله عن المعجز عن خلق شئ عجيب يستبعد وقوعه؛ لتيقنه أن الله على كل شئ قدير.

ودائما يقترب الحمد بالتسبيح كما فى قوله تعالى: (فسبح بحمد ربك) الحجر ٩٨ وقوله (وإن من شئ إلا يسبح بحمده) الإسراء ٤٤، فما أمرنا بتسبيحه

إلا لحمده، فقل سبحان الله حال كونك ملتبسا بحمده، وتعجب لتيسير الله مالم يخطر ببال أحد، واحمده على جميع صنعه، وعظيم منته على هذه النعمة.

ويجوز أن يكون المراد بقوله «فسبح بحمد ربك» مجازاً عن الصلاة للجزئية، لأن التسبيح بعض الصلاة، وقد روى أنه عليه السلام لما فتح باب الكعبة صلى صلاة الشكر.

وضم للتسبيح الاستغفار، أى اطلب منه المغفرة، هضماً لنفسك واستقصاراً لعملك، واستدراكاً لما فرط منك من ترك الأولى.

وقيل: إن المراد أمره بالاستغفار لأتمته لا لذنبه، فيكون مجازاً علاقته الخصوص.

«إنه كان تواباً» تواب من صيغ المبالغة، أى أن الله مبالغ فى قبول توبة التائبين.

وفى الترتيب المذكور فى الآية فسبح بحمد ربك واستغفره، حيث قدم التسبيح ثم الحمد ثم الاستغفار، تعليم وإرشاد بأدب الدعاء، وهو ألا يسأل فجأة من غير تقديم الشاء على الله سبحانه.

وفى الاستغفار تنبيه على تمام أمر الدعوة، وقرب الأجل، ودنو الرحيل.

وعندما نزلت هذه السورة مرض رسول الله ﷺ، فخرج إلى الناس خطيباً ودخل المنزل، وتوفى بعدها بفترة وجيزة.

* * *

سورة المسد مكية

(عدد الآيات ٥ آيات، نزلت بعد الفاتحة)

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۚ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۚ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۚ ﴾ (٢)

وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۚ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۚ ﴾ (٥)

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۚ ﴾ (١)

تبت: هلكت، أو خسرت، أو خابت، أو ضلت، وصفرت من كل خير.

المراد باليدين نفسه، فقد يعبر باليد عن النفس، كما هي قوله تعالى (يما قدمت يداك) الحج ١٠، أى نفسك، فتكون مجازاً، والعرب كثيراً ما تعبر ببعض الشيء عن كله، كقولهم: أصابته يد الدهر، أو أصابته يد المنايا، وخص اليدين بالتباب؛ لأن أكثر العمل يكون بهما.

وأبو لهب اسمه عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم، ذكره الله بكنيته، لاشتهاره بها، والعزى: اسم صنم، وهذه الكنية تدل على أنه ملابس للنار، لأن اللهب هي لهب النار. أو لأنه كان في الأصل جميلاً، مشرق البشرة، متلهب الوجه، كما تتلهب النار. والكنية تكون للمدح، إلا أنها في هذا المقام جاءت للذم.

وتب: هلك. والأولى دعاء والثانية خبر، كما تقول: أهلكه الله وقد هلك داعياً عليه بالهلاك، واستجاب الله لدعائه، ووقع ما كان يدعو به عليه. «وذكره بكنيته دون اسمه إهانة له وتحقيراً لشأنه» (١)

وسبب نزول السورة أنه عندما نزل قوله تعالى: (وأنذر عشيرتک الأقربين) الشعراء ٢١٤ رقى رسول الله ﷺ الصفا وجمع أقاربه فأنذرهم، قائلاً: يا بنى عبد المطلب، يا بنى همد، أرايتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي أكنتم مصدقي؟ قالوا: ما جربنا عليك كذباً، قال: إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد.

(١) التبيان ص ٦٤.

فقال أبو لهب: تبا لك ألهذا جمعتهما؟

أراد أن يرميه بحجر - فمنعه الله من ذلك حيث لم يستطع أن يرميه. فذكر
الدين يكون على سبيل الحقيقة، وليس مجازاً أو كناية.

وعبر بالضعلين تبت، وتبّ، بالماضي، لتحقق وقوعهما، وهنا لطيفة يحسن
ذكرها، وهى بداية السورة بقوله تعالى تبت يدا أبى لهب، ولم يذكر «قل تبت» كما
فى المعوذتين مثلاً، لئلا يكون مخاطباً لعمه بالشتم والتغليظ وإن شتمه عمه، لأن
للعلم حرمة كحرمة الأب، والنبي مبعوث الرحمة للعالمين، فهو القدوة فى التربية
والسلوك، فأجاب الله عنه.

﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۖ ﴾ (٢)

أى: ما دفع عنه ما حل به من التباب، وما نزل به من عذاب الله شئ، ما
جمع من المال، ولا ما كسب من الأرباح أو الجاه. فما أغنى عنه ما ورثه من مال
أبيه، وما كسبه بكمه.

ويجوز أن يكون المعنى أى شئ أغناه؟ لا المال ولا الكسب، فالاستفهام هنا
أراد به الإنكار.

لقد هلك أبو لهب بعد وقعة بدر لسبع ليال، أصيب بالطاعون فاجتنبه أهله
مخافة العدوى، فبقى ثلاثة أيام لا يقربه أحد حتى أنثن، حفروا له حفرة ثم دفعوه
بعود فى حفرة، وقذفوه بالحجارة من بعيد حتى وأرووه.

وكانت عائشة رضى الله عنها إذا مرت بموضع، غطت وجهها.

﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۖ ﴾ (٣)

سَيَصْلَى هو بنفسه، لتعينه وقد سبق ذكره بكنيته، فهو سيدخل النار لا
محالة.

ونكر «نارا» لتعظيمها وشدة غليانها.

ووصف النار بأنها ذات لهب، أى نارا عظيمة ذات اشتعال وتوقد، وهى نار
جهنم.

﴿وَأَمْرَاتُهُ حَمَالَةَ الْحَطَبِ (٤)﴾

أى وتصلى امرأته نارا ذات لهب، كزوجها الذى أذى رسول الله وهى أم جميل بنت حرب أخت أبى سفيان، كانت تحمل الأشواك والحسك وتطرحه ليلا فى طريق رسول الله.

كما كانت تمشى بالتميمة بين الناس تتقول على الرسول افتراء وبهتاناً، فهى تحمل الحطب كناية عن كونها تحمل الخطايا والذنوب، كما تقول: فلان يحتطب على ظهره، وكقوله تعالى: «وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم»، والذنوب لا تحمل على الظهر فى الحقيقة، وإنما هو تعبير مجازى درج عليه العرب، ولن تجد ذمّا أفدح من أنها حمالة الحطب، سواء كان حقيقة أو مجازاً.

﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥)﴾

الجيد: العنق، والمسد: حبل من الليف أو الصوف أو الجلد. كانت تعير النبى ﷺ بالفقر وهى تحتطب فى حبل تجعله فى عنقها فخنقها الله به فأهلكها. هذا فى الدنيا.

وفى الآخرة: هو سلسلة من نار تدخل فى فيها وتخرج من أسفلها. وقدم الخبر «فى جيدها» وأخر المبتدأ «حبل» لما يفيد التقديم من اهتمام بشأن المقدم، تحقيراً لشأنها، فقد كانت تحمل حزمة الشوك وتربطها فى جيدها كما يفعل الحطابون، انتقاصاً لقدرها، وتصويراً لها بصورة الحطابات، فتغضب ويشق عليها الأمر وعلى زوجها، وهما فى بيت العز والشرف وفى منصب الثروة والجدّة.

ونكر «حبل» لازدراء صورة الحبل وتفاهته، ووصفه وبينه بأنه «من مسد» أى شوك وحسك. ولن يؤثر فى دعوة الرسول ولن يجعله يتخلى عن رسالته.

* * *

سورة الإخلاص مكية

(عدد الآيات ٤ آيات، نزلت بعد الناس)

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝ (٤)﴾

عن أبي بن كعب رضى الله عنه أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: يا محمد انسب لنا ربك، فأنزل الله: قل هو الله أحد، السورة أى ليس شيء يولد إلا سيموت، وليس شيء يولد إلا سيورث، وأن الله لا يموت ولا يورث، ولم يكن له كفوا أحد، أى لم يكن له شبيه ولا عبد وليس كمثله شيء.

ويقول رسول الله ﷺ: من قرأ قل هو الله أحد فكأنما قرأ ثلث القرآن

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ (١)﴾

صدر الجملة بقل ليفيد التثنية من أول الأمر على فخامة مضمون السورة. وأبهم ثم فسر لمزيد من التقرير والتأكيد.

فضمير الشأن يفيد تعظيم ما سيأتى بعده، وهو كتابة عن ذكر الله. (١) أى سألتكم بيان نسبته: هو الله أحد، فضمير هو راجع إليه سبحانه لا إلى غيره. ولفظ الله علم يدل على الإله الحق دلالة جامعة لمعانى الأسماء الحسنى كلها.

وأحد يفيد العموم. أى لا يشاركه شيء فى ذاته، فهو واحد بذاته بلا اعتبار شيء آخر، فأثبت له الأحدية التى هى غناء عن كل ما عداه. فلا يوصف بالأحدية غير الله. ولا يقال رجل أحد ولا درهم أحد، كما يقال رجل واحد ودرهم واحد. فالواحد يدخل فى الأحد، والأحد لا يدخل فى الواحد. فإذا قلت: لا يقاومه واحد. جاز أن يقال: لكنه يقاومه اثنان، بخلاف قولك: لا يقاومه أحد.

(١) وضع المضمير موضع الظاهر فى الآية، أى الشأن الله أحد، ليتمكن فى ذهن السامع ما يعقبه، فإن السامع متى لم يفهم من الضمير معنىبقى منتظراً لمعنى الكلام كيف يكون، فيتمكن فى ذهنه فضل تمكن الإيضاح - القزوينى - مد عبد القادر ص ١٠١، ١٠٢.

﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ (٦)

والصمد: هو الذى يصمد إليه فى الحاجات، أى يصمد لكونه قادراً على قضائها، وهو السند الذى تنتهى إليه السيادة، فلا سيد فوقه، وهو الدائم الباقي الذى لم يزل ولا يزول. وهو المستغنى عن كل أحد، والمحتاج إليه كل أحد. وهو المقصود فى الرغائب والمستعان به فى المصائب. وهو الذى يفعل ما يشاء ويحكم بما يريد. وهو الكامل الذى لا نقص فيه ولا عيب. وذلك أظهر فى المدح وأدخل فى الشرف.

وكرر لفظ الجلالة، «الله» للإشعار بأن من لم يتصف بذلك فهو بمعزل عن استحقاق الألوهية.

وذكر جملة «الله الصمد» بعد قوله: «الله أحد» دون عطف؛ لأن الجملة الأولى كالسبب للجملة الثانية، والجملة الثانية كالنتيجة للجملة الأولى. والسبب والنتيجة متلاصقان لا ينفك أحدهما عن الآخر. يقول الفخر الرازى: فإنه لو ترك الإظهار إلى الإضمار ف قيل: قل هو الله أحد، هو الصمد، لم يكن فيه من الفخامة ما فيه الآن^(١) أو كما يقول الطيبي: «إنه عبر بالظاهر لإدخال الروعة فى ذهن السامع»^(٢).

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ (٧)

لم يصدر عنه ولد، ولم يصدر هو عن والد، شأن الآخرين من الخلق؛ لأنه لا يجانبه شيء ولا يماثله أحد، ولاستحالة نسبة العدم إليه سابقاً ولاحقاً.

وذلك أن مشركى العرب قالوا: الملائكة بنات الله.

وقالت اليهود: عزير ابن الله.

وقالت النصارى: المسيح ابن الله.

فكذبهم الله فقال: لم يلد ولم يولد.

(١) نهاية الإيجاز ص ٢٤٤، والدلائل ص ١٠٧.

(٢) التبيان ص ٦٠.

قدم ذكر الولد «لم يلد» على ذكر الوالد «لم يولد» للاهتمام بشأن الولد، لأن المشركين ادعوا له الولد، ونسبوا إليه الملائكة وعزير والمسيح، ولم يدع أحد أن لله سبحانه والدا.

فبدأ بالأهم، «لم يلد»، وعقب بقوله «ولم يولد» كالدليل على امتناع الولد، لأن الله جل جلاله ليس ولداً لأحد، فيتفق مع كونه ليس والداً لأحد.

وعبر بالماضي «لم يلد ولم يولد» ولم يعبر بالمستقبل؛ لأنه ورد جواباً عن قولهم: ولد الله، حكاية عن قوله تعالى «آلا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله» الصافات ٥١. فقالوا ذلك بلفظ يفيد الماضي، فجاء الجواب على شاكلته في الماضي: إبطالا لزعمهم وافترائهم بأن الملائكة بنات الله والمسيح ابن الله، يقول أبو الليث: لم يلد: يعنى لم يكن له ولد يرثه، ولم يولد: لم يكن له والد يرث ملكه.

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفْرًا أَحَدٌ﴾ (٤)

قدم الجار والمجرور «له» وهو الخبر على المبتدأ وهو «أحد» لرعاية الاهتمام، لأنه قصد نفي أن يكافئه عن ذاته، أى يضاهيه ويمثله أحد.

وأخر المبتدأ «أحد» رعاية لفاصلة الآيات السابقة، فالسورة كلها تجرى على فاصلة واحدة وهى الدال، فلو جاءت هذه الآية على الترتيب المألوف لاختلت النغمة الموسيقية الناشئة عن تماثل الفاصلة.

يقول سيبويه: التقديم والتأخير والإلغاء والاستقرار، عربى جيد كثير. فليس له كفو، وليس كمثله شئ.

ونكر كفوا، وأحد، ليفيد فى كل منهما العموم والشمول. أى ليس أحد مهما كان عظيماً أو غنياً أو حكيماً، أو عالماً أو جباراً يضارعه فى صفاته، فالحكل دونه، وهو فى المكانة العليا، والدرجة الرفيعة التى لن يصل إليها كائن سماوى أو أرضى.

وهو الرب الذى يقصد لدفع كل بلية، وإيصال كل خير، وهو الذى يستشفع به لدفع العذاب، ومنح الثواب.

وهو وحده ليس أحد سواء المستحق للألوهية والربوبية.

سورة الفلق مكية

(عدد الآيات ٥ آيات، نزلت بعد الفيل)

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥)﴾

روى عن ابن عباس رضى الله عنه أنه كان غلام من اليهود يخدم النبی ﷺ وكان عنده أسنان من مشطه، فأعطاهها لليهود، فسحروه عليه السلام فيها، وتولى سحره لبيد بن أعصم اليهودي وبناته وهن النفاثات في العقد، ودفعنها في بئر تسمى ذروان، فمرض رسول الله ﷺ مرضاً شديداً لبث فيه ما يقرب من ستة أشهر، فنزل جبريل بالموذنتين، وأخبره بموضع السحر، وبمن سحره، وبم سحره.

فأرسل رسول الله ﷺ علياً والزبير وعماراً رضى الله عنهم، فنزحوا ماء البئر وكأنه نقاعة الحناء، ورفعوا الصخرة التي في أسفل البئر فأخرجوا من تحتها الأسنان ومعها وتر قد عقد فيه إحدى عشرة عقدة مفروزة بالإبر، فجاءوا بها إلى النبي ﷺ، فجعل يقرأ الموذنتين عليها، وكلما قرأ آية انحلت عقدة، فوجد خفة حين انحلت العقدة الأخيرة بتمام السورتين، وكأنما نشط من عقال، وجعل جبريل يقول: باسم الله أرهيك، والله يشفيك من كل شيء يؤذك، من عين وحاسد.

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١)﴾

الفلق: الصبح؟ لأنه يفلق عنه الليل، ويتحقق هذا بأن يكون الشيء مستورا محجوباً عن الأنظار، وثمة شيء حجبته وأخفاه، ثم يشق هذا الحجاب الساتر عن وجه المستور، فيظهر بعد أن كان مختفياً.

والصبح صار مغلولاً عنه بإزالة ما عليه من ظلمة الليل، يقال في الأمثال: هو أبين من فلق الصبح.

وأضاف لفظة «رب» إلى الفلق؛ لأنه ينبئ عن النور عقيب الظلمة، والسعة بعد الضيق، والخفة بعد الكثافة.

﴿ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ۝ ﴾

أى من شر ما خلقه الله من الثقلين وغيرهما أيا كان، من السباع والهوام، فيشمل جميع الشرور بدنية أو نفسية، بدنية كالضرب والقتل، ونفسية كالإهانة والسحر.

وأضاف الشر إلى خلقه من المطبوعين على إلحاق الأذى والضرر بغيرهم من الطيبين والصالحين من الناس.

وحذف المفعول به «ما خلق» أى من شر ما خلقه، حتى يكون شاملا لشرور الخلق أجمعين، فالحذف جاء ليدل على الشمول والعموم.

﴿ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝ ﴾

هذه الآية داخله فى الآية التى قبلها، والآية مشتملة عليها، فهى تفيد الخصوص بعد العموم؛ وذلك لشدة الافتقار إلى التعمد من شرار الخلق لكثرة وقوع الشر منهم سواء كان شيطاناً أم إنساناً أم حيواناً، فإعادة ذكره تفصيلاً بعد أن كان مجملاً يدل على شدة العناية به وأدعى للاستعاذة منه.

والغاسق: الليل المظلم الشديد الحنكة، أو هو كل شر يعتري الإنسان على العموم، وأضاف الشر إليه «من شر غاسق»؛ لكثرة وقوع الشر فيه، فالليل ليس شريراً يقع منه الشر كما يقع من الأشرار، ولذلك فهو مجاز على علاقته الظرفية، باعتبار وقوع الشر فيه بأيدي المفسدين وأفعال الأشرار.

ونكر لفظة «غاسق» ومعناها الليل كما سبق، والشر لا يقع فى جميع أوقات الليل، أو شامل لجميع زمانه، وإنما يقع فى بعض أوقات الليل وليس فى جميع أوقات الليل، فذكره كلية وأراد به بعضه، فهو مجاز علاقته العموم، والتكثير للتقليل وعدم العموم.

و«الغاسق إذا وقب» أى الليل إذا أوغل فى الظلمة.

فالقوب: النقرة في الشيء، كالنقرة في الصخرة إذا اجتمع فيها الماء ومنه
وقب الظلام: أى دخل.

وقيد غاسق بإذا: لأن حدوث الشر في الليل يكثر إذا اشتد ظلامه، والتحرز
فيه من وقوع الشر أصعب، ولذا يقال: الليل أخفى للويل، أو أغدر لليل؛ لأنه إذا
أظلم كثر فيه القدر، وغلب عليه العصيان، وطلب النجدة والقوت.

﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤)﴾

من النفث، وهو شبه النفخ يكون في الرقية ولا ريق معه، فإن كان معه ريق
فهو التقل، وعرف النفاثات بأل، لبيان ما يلزم طبعهن من ضرر.

والعقد: جمع عقدة، وهى ما يعقده الساحر على وتر أو حبل أو شعر أو
منديل، وهو ينفث ويرقى.

أى من شر النفاثات اللاتى يعقدن عقدا في خيوط وينفثن، واكتفى بذكر
النساء «النفاثات» لأنهن أشد كيدا وإيذاء من الرجال.

أو أن المراد بالنفث في العقد إبطال عزائم الرجال بالحيل الغريبة الهابطة في
إتيان أزواجهن، إمعانا في الحاق الضرر بهم وبأزواجهم.

فالنساء من شأنهن أن يغلبن على الرجال بالحيل والمكر، فيحولونهم عن
حلالهن، فاستعار لذلك تليين العقدة بنفث الريق ليسهل حلها.

وعبر بالجمع في النفاثات، وفي العقد، دلالة على أن الأمر في كل زمان
لا يخلو من جماعة من النساء ينفثن في عدة من العقد يسحرن بها للرجال، حتى
يلحق الضرر بهم وبأزواجهم وأخواتهم.

﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥)﴾

إذا أظهر الحاسد ما في نفسه من الحسد وعمل بما يقتضيه من ضرر
والحاقه بالمحسود قولا أو فعلا.

وقيد الحاسد بـ «إذا حسد» فحاق ضرره بالمحسود، فبعض الحسد لا أثر
له، رغم وجود الرغبة الجارفة في حصوله، فجاء القيد لذلك.

وقد يقع الحسد فى الخيرات، ليس بمعنى زوالها بمن يتمتع بها؛ بل بمعنى أن يتمنى مثلها لنفسه، ويسمى ذلك غبطة لا حسداً. فالحسد يأكل الحسنات كما تاكل النار الحطب.

ذكر الله شر المخلوقات فى أول السورة ثم ختمها بالحسد؛ ليبين لنا أن الحسد من أخبث الطبائع وأسوأ الأفعال، ويدل على سوء الطوية وفساد الأريحية. وفى الآيتين الأوليين نلاحظ السجع لاتفاق الفاصلتين فى حرف القاف.

ويقيد الآيات جاءت مرسله غير مقيدة بسجع ولا متماثلة فى وزن، وهو نوع من التقنن فى الأساليب عند نقاد العربية ومبدعيها.

ومهما يكن من شئ فإن الله أذن بنفاذ السحر إلى بدنه وغلبته عليه؛ ليؤكد صدقه وصحة معجزاته ﷺ، وكذب من ينسب إليه السحر والكهانة.

ولو كانت معجزات الرسول من باب السحر، لعرف أنه مسحور وتوصل إلى دفعه عن نفسه، ولكنه برح مريضاً بالسحر فترة طويلة دون أن يعلم شيئاً عن سحره ومن سحره.

ولا شك أن هذا من أقوى البراهين على صحة نبوته وصدق رسالته.

* * *

سورة الناس مكية

(عدد الآيات ٦ آيات، نزلت بعد الفلق)

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَفَاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْغِيَةِ وَالنَّاسِ (٦)﴾

هذه السورة هي إحدى المعوذتين، وسميت بسورة الناس؛ لأنها تكررت فيها خمس مرات. والقصد منها الحذر والاحتراز عن وسوسة الشيطان ومن تعدى الإنسان والجن.

وكان الرسول ﷺ يتعوذ بسورتى الفلق والناس من عيون الإنس والجن. والرسول ﷺ يقول: من أحب السور إلى الله: قل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس، وكان إذا اشتكى يقرأ على نفسه المعوذتين وينفث، وإذا اشتد وجعه كانت السيدة عائشة رضي الله عنها تقرأهما عليه وتمسح بيدها على جسده رجاء البركة والبرء.

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾

«قل» فعل أمر استعمل في معناه الحقيقي وليس المجازي؛ لأنه أمر من الله سبحانه لنبيه، أمر من الأعلى لمن دونه في الرتبة.

وهـ «أعوذ» فعل مضارع، وعبر به ليكون الاستيعاذ من الجن والشياطين متكررا متجددا في كل وقت ومكان شأن الفعل المضارع.

وقال: «رب الناس» مع أنه رب المخلوقات جميعا من جن وملائكة وإنس؛ لأن الاستعاذة وقعت من شر ما يوسوس في صدورهم، وهم الناس دون غيرهم من ملائكة أو شياطين، فليس ثمة من ذكر الناس شيء سوى الاهتمام بشأنهم والعناية بأمرهم.

هالشيطان يوسوس فى صدر الإنسان، والإنسان يوسوس فى صدر أخيه الإنسان، أما الجنى فلا يوسوس فى صدره إنس ولا جان.

وقد يراد بالناس هنا مرحلة طفولتهم؛ لأن كلمة الربوبية (رب الناس) تدل عليه، ومرحلة الطفولة تفتقر دوماً إلى التعليم والتهديب والتربية، والله هو المربي وهو المعلم فى حقيقة الأمر. وإضافة كلمة الرب إلى الناس تشريفاً لهم.

﴿مَلِكِ النَّاسِ (٢)﴾

أى أن ربوبيته ليست كربوبية سائر الملأك لما يمتلكون، كرب البيت ورب الضيعة ورب المتاع بمعنى مالكة؛ بل الله يمتلك الناس امتلاكاً كاملاً بسلطانه القاهر، وقدرته الشاملة، وقد وضع ذلك من إضافة لفظ الملك للناس (رب الناس). وقد يراد بالناس هنا الشبان، لما فى الشباب من شدة وعناد وصلابة، و«ملك الناس» يدل عليه لما فى ذلك من امتلاك زمام أمرهم.

﴿إِلَهِ النَّاسِ (٣)﴾

فالرب قد يكون ملكاً، كما فى الآية السابقة، وقد لا يكون، والملك لا يكون إلهاً، وقد يكون، فهين أن كلمة إله خاصة به دون سواء، لا يشاركه أحد فيها، فأفادت التخصيص.

وقد يراد بالناس هنا الشيوخ؛ لأن الإنسان إذا وصل هذه المرحلة من العمر، حنكته التجارب، وابتمد عن الفواية والمعصية، وتمسك بالإيمان والتقوى، ولفظ «إله» الذى ينبئ عن العبادة فى قوله «إله الناس» يدل عليه.

وهى صفة أخرى تميز الخالق عن كل من عداه وما عداه من مخلوقات، وكرر لفظ الناس ثلاث مرات متعاقبات؛ لأن التكرار فيه مزيد لشرف الناس، واختصاص بمزية التوكيد والبيان، كما أن التكرار هنا ليس سجعا؛ لأن معنى الناس فى الجميع واحد لا يختلف، والسجع لا يد فيه من اتحاد اللفظ واختلاف المعنى.

يقول الطيىبى فى كتابه التبيان بعد أن ذكر «قل أعوذ برب الناس، ملك الناس، إله الناس» إن هذه الإضافة تقييد إرشاد النبى لقومه أن يلجئوا إلى ربهم، وإلى

أمورهم من شر عدوهم على الترقى لتقوية داعية المغيث، كما يستغيث العبد إذا اعتراه خطب بسيدته^(١).

﴿ من شر الوسواس الخناس ﴾ (٤)

أضاف كلمة «شر» إلى الوسواس، وهو الشيطان؛ لبيان أن كل ما يصدر عن الشيطان الموسوس لا يخرج عن الشر، والشر متوغل فيه إلى أقصى الدرجات، يجري فيه مجرى الدم من العروق.

ووصف الوسواس بالخناس؛ لأنها صفة لازمة له لا تتخلف عنه أبداً، فهو يخنس وتخف حدته إذا ذكر اسم الله، وإذا غفل المرء عن العبادة وعن ذكر الله ظهر الشيطان ووسوس للفاصل وأغراه بشور الأعمال وارتكاب المعاصي.

﴿ الذي يوسوس في صدور الناس ﴾ (٥)

غير بالاسم الموصول «الذي» وجعل المضارع «يوسوس» صلة له، والصلة لا بد أن تكون معلومة للمخاطب، ووسوسة الشيطان في قلب المؤمن ليست بالمجهولة لديه، فهو دائم الوسوسة حيناً بعد حين، لا يفتر عنها مادام المرء رخوا الإيمان، ولا ينقطع عن وسوسته إلا إذا واجهه المرء بإيمان قوى وعزم أكيد.

فغير بالفعل المضارع ليفيد تجدد الوسوسة وحدوثها واستمرارها.

(في صدور الناس) ولم يقل في قلوب الناس؛ لأن المصدر بمنزلة الوعاء للقلب، والقلب مضغفة فيه، فوسوسة الشيطان تفيض بالقلب حتى يمتلئ، فتندفق على كل ما يحيط به، حتى تطفئ فيترع به الصدر.

والمراد من لفظة «الناس» في قوله (الذي يوسوس في صدور الناس) هم أهل الصلاح والبر؛ لأن الوسوسة سواء أكانت من شيطان الإنس أو من شيطان الجن، فصاحبها مولع بها ويعمل على غوية كل من يعرض له.

(١) الثيبان - الطيبس من ٧٧، ٧٨ ط عالم الكتب.

﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾

عرف كلا من الجنة والناس «بأل» لأن كلا من فريق الجن وفريق الإنس معلوم عند جميع الخلق، لا يجهل معناه أحد، بالفعل أو بالسمع. أراد بذلك أن يستعيذ الإنسان من كل صنوف الجن وهمزات الشياطين من الإنس.

وعطف الناس على الجنة؛ لأن كلا من الفريقين مغاير للآخر. فلزم العطف حتى لا يظن أنهما من جنس واحد، رغم أن القصد من وسوستهما واحد. فشيطان الإنس يبدو في صورة الناصح الأمين الذي يريد المصلحة وهو يروج للمعصية، وتؤدي وسوسته إلى الخسران المبين. والشيطان من الجن يفرى بالوسوسة فيوقع الإنس في الإثم والهلاك.

يقال: إن المراد بالناس في هذه الآية هم المفسدون الأشرار. وعطفه على الجنة (من الجنة والناس) يفيد ذلك لما يلزم من العطف اتفاقهما في الغرض.

والشيطان لفظ عبري يدل في اليهودية والمسيحية والإسلام على مبعث الشر ممثلاً في شخص بذاته، وقد كان في الأصل ملكاً، وعندما تمرد على الخالق سبحانه، سقطت منزلته، وأصبح من أهل النار، له سلطانه في جهنم يأتهم بأوامره كثير من صفار الشياطين.

فالشيطان يفرى بالشر، ويقود للمعاصي، غير أن الإنسان بعزمه وقوة إرادته يدفع عنه هذا الشر وينتصر عليه بنعمة ربه، فالشيطان عاجز مقيد أمام القدرة الإلهية، ولا يستطيع أن يقدم على فعل إلا بإذن الله.

فهرس الموضوعات

اسم السورة	رقم الصفحة	اسم السورة	رقم الصفحة
النبا	٥	القدر	١٢٩
النازعات	١٧	البينة	١٣٣
عبس	٣٩	الزلزلة	١٣٧
التكوير	٣٩	العاديات	١٤١
الانفطار	٤٥	القارعة	١٤٥
المطففين	٥١	التكاثر	١٤٩
الانشقاق	٦١	العصر	١٥٣
البروج	٦٧	الهمزة	١٥٥
الطارق	٧٥	الفيل	١٥٩
الأعلى	٧٩	قريش	١٦٣
الغاشية	٨٥	الماعون	١٦٧
الفجر	٩١	الكوثر	١٧١
البلد	٩٩	نكافرون	١٧٥
الشمس	١٠٥	النصر	١٧٩
الليل	١٠٩	المسد	١٨٣
الضحى	١١٥	الاخلاص	١٨٧
الشرح	١١٩	الفلق	١٩١
التين	١٢١	الناس	١٩٥
العلق	١٢٣		

